الابتدائي بلغة البلاد القومية ، وأن يكون في التعليم الثانوي لغة عالية الى جانب تدريس اللغة القومية ، مع ضرورة التدريب على الاعمال اليدوية وقيام التلاميذ بتجارب علمية بأنفسهم لا أن يقوم المدرس بتجربة علميـــة أمام التلاميذ وهم يتفرجون فقط . . فاذا أردنا أن نحقق لشعب ما تدريبا فنيا يجب أن يبدأ هذا التدريب في كل مكان » .

وما قاله هذا العالم الكبير هو الذي نقول به ، فان اضافة لغة أجنبيـة أو لغتين الى اللغة القومية في التعليم الثانوي هو مما لامندوحة عنه لاتاحة فرصة التعليم في الخارج ولمتابعة الاطلاع على ماجد في المجالات العلمية من نظريات وابتكارات سواء كانت هذه اللغة القومية هي العربية أو الفرنسية أو الانكليزية أو سواها ، فالعربية في هذا تتساوى مع غيرها من اللغات في عدم صحة الاستغناء بها عن اللغات الأخرى . ولعل الاستاذ روستو سكت عن التعليم الجامعي لأن السؤال كان عن التعليم في البلاد النامية والبلاد العربية في هذا الميدان ، أعني ميدان التعليم ، ليست من البلاد النامية . لأن لغتها العربية لغة حية ومتطورة وعريقة في المجد العلمي والحضاري ، وهذا أمر لايجهله مثل الاستاذ ، اللهم الا أن يكون المستجوب من أولئك الذين يشعرون بمركب النقص الذي ألمعنا اليه آنفا ازاء اللغة العربية فيكون سكوت المجيب عن هذه النقطة بالذات من أسلوب الحكيم في الجواب .

نعم ان بلادنا العربية بلاد نامية اقتصادياً ولكنها علمياً بلاد متقدمة ، لأن لها ثقافة روحية وتشريعية عظيمة ، ولها أدب عالمي خالد ، ولانها بالمكانة التي ذكرت ، فليس ينقصها الا تكوين علمي تقني سريع لتلحق بالركب الطلائعي

التقدمي وتجبر خللها الاقتصادي الذي يلز بها في حظيرة الشعوب النامية . وربما كان هذا التكوين هو مايعنيه ووستر بالتدريب الفني على ماجاء في آخر كلامه .

ويؤيد هذا ان الحكومة المغربية استقدمت لجنة من خبراء البنك الدولي للانشاء والتعمير بقصد الاستشارة ، فكان من رأيها ان ازدواجية لغة التعليم هي مما يستنزف مالية المغرب (تبلغ ميزانية وزارة التهذيب الوطني المغربية ٥٠ مليارا من الفرنكات يصرف معظمها في اجور الأساتذة الفرنسيين) ، فضلا عن كونها السبب في هبوط مستوى التعليم ، واوصت باعتماد لغة البـــلاد وجعلها اللغة الأساسية للتعليم .

ولقد يعجب القارىء من اخلاص هذه اللجنة الأجنبية واشارتها الصائبة ، ولكنه اذا ذكر أنها لجنة مالية لا ثقافية ، وأن ماقامت به هو مقارنة الارقام بين الموارد والمصارف في قطاعات المصالح الحكومية ، فلم يكن يهمها التمكين لهذه الجهة أو تلك وانما غرضها ايجاد وضع مالي سليم ـ اذا ذكر ذلك زال عجبه وعرف سر تلك النصيحة الخالصة .

وعليه فان مابيننا وبين تخطي عتبة التخلف هو نشر التعليم بلغتنا القومية ، ورفع مستوى شعوبنا من الامية العلمية التي تتخبط فيها الى مستوى الشعوب المتعلمة المتمرسة بسائط العلوم ونواميس الطبيعة ، أي نقل العلم الى المجتمع العربي وجعل افراده يدركون حقائقه وبديهياته كما يدر كها أي فرد في مجتمع راق من المجتمعات المعاصرة ، ولن يكون ذلك الا اذا تعلم الشعب العربي بلغته الأم ، وطوّع لسانه على التعبير عما يشاهده ويحسه بألفاظ يعرف مبناها ومعناها . أما أن يتعلم عدد من الاشخاص بلغة اجنبية فمعناه نقل هؤلاء الاشخاص الى عالم العـــلم وزيادة عدد

المتعلمين في اللغة التي تعلموا بها ، فلا تستفيد شعوبهم كبير فائدة منهم لأن التفاهم بينها وبينهم معدوم ، بسبب اللغة التي هي أكبر حاجز يمنع هذا التفاهم بل يمنع حتى الاتصال . ولعل هذا هو السر في ان النهضة العلمية في بعض الاقطـــار العربية بدأت منذ نحو قرن ومازالت لم تؤت أكلها على النحو المرغوب ، وما زال الشعب العربي فيها يعيش بعقلية القرون الوسطى .

يشير بعضهم الى وجوب ملاحقة ركب المعرفة وضرورة الاتصال بأوساط العلم في آخر ما انتجت من أجل التقدم الانساني المطرد ، قائلا ان ذلك لا يتأتى الا لمن تلقى تعليمه العالي بإحدى هذه اللغات الاجنبية الحية ، ونحن نقول انه يتأتى لمن اتقن لغة من تلك اللغات ولا يلزم ان يتلقى تعليمه العالي بها ، وقد قلنا بضرورة تلقين لغة اجنبية أو لغتين منذ المرحلة الثانوية للتعليم . وانما الذي ينبغي تأكيده هو ان يكون هذا التلقين قويا ليتقن المتعلم تلك اللغة كما هو الحال عند غيرنا من الامم والشعوب . فاذا جاءت مرحلة التعليم العالي وحصل الطالب على الدرجة العلمية المنشودة بلغته الأصلية كان عنده من الوســـائل العملية مايؤهله لمواكبة قافلة البحث العلمي والتقني في العالم بكل نجاح ان هو أراد ذلك . وهذا هو مايفعله العالم الفرنسي والالماني وغيرهما من علماء الامم التي تقف في الصف الاول من حيث التصنيف في التقدم والحضارة . وكذا علماء غير هذه الامم ممن يقفون في الصف الثاني وان كانوا في الطريق وعلى وشك اللحاق بأولئك ، فليس منهم من يدرس العلوم في بلاده بغير لغته القومية ، اللهم الا أن يستمع لاستاذ أجنبي تستقدمه جامعته لالقاء بعض المحاضرات في فرع من فروع المعرفة يكون له فضل علم به ، أو يذهب في بعثة دراسية الى بلد اجنبي ، وحينئذ تكون اللغة

الاجنبية التي لقنها في الثانوي هي وسيلته للدراسة ، وهو باقامته في ذلك البلد الاجنبي لا بد أن يتقوى في لغته حتى يمكنه مواصلة تعليمه بها .

وعلى كل فان الاطلاع على دنيا العلوم وما يجد فيها من تجارب وكشوف، مرهون بالهمة والنشاط وحب المعرفة أكثر من أي شيء آخر ، فكم من دارس بهذه اللغة الأجنبية أو تلك قد تمكن منها كل التمكن وصار أعرف بها من كثير من أهلها ، واذا تكلم بها فانه لا يخرم حرفا ولا نبرة من نبراتها ، ولكنه في مجال العلم والبحث والاطلاع صفر على اليسار ، قد انقطع ما بينه وبين التحصيل منذ تخرجه ، ولم تفد منه أمته شيئا يذكر . بل هو يشكل خصماً لها بما انه تنكر لمعارفها ولغتها حتى لقد اصبح عبئاً ثقيلا على مجتمعه لا يستسيغه ولا ينسجم واياه .

وبالعكس فان هناك دارسين موفقين عن الهمتهم العزيمة والتطلع وشغفوا بمحبة العلم والمعرفة ولو لم يكونوا على مثل الرسوخ والتضلع في اللغة الاجنبية الذي عند صاحبنا الأول ، تراهم دائما على اتصال بما جد ويجد في حقل الخبرات الانسانية والأعمال الفنية المبتكرة ، ينشؤون وينتجون باستمرار ودون انقطاع، ما يثرون به تراثهم القومي وحياة الفكر في بلادهم ، فهؤلاء هم الذين تعول عليهم الأمم والشعوب في تطوير عقليتها واخصاب ثقافتها ، لا اولائك الطفيليين الكسالى الذين لا غناء فيهم ولا فائدة ترجى منهم .

ونعطي مثالاً من مغربنا العربي الذي يعتمد الفرنسية في الدراسات العامة، فان عشرات بل مئات من مثقفيه قد انقطعت الصلة بينهم وبين الحياة العلمية ، او على الأقل لا يعرف لهم أثر في هذه الحياة، وقد مر على تخرج الكثير منهم عشرات السنين ، وذلك رغم اتقانهم اللغة الفرنسية اتقان ابنائها لها ، فالطبيب منهم يعالج

المرضى ان لم يشغل وظيفة حكومية تكون أكثر دخلا من مهنته تاركا ميدان المعالجة للطبيب الاجنبي ، وكذلك المحامي والمهندس وغيرهما ، لا يزيدان على مزاولة مهنتها بصفة عادية ، ولقد عجز كثير منهم حتى عن اعداد انفسهم للتدريس بالعربية في المدارس الثانوية لانجاز مشروع تعريب التعليم، فأين مازعمه هذا الذي يقول ان الدراسة بلغة اجنبية تفتح آفاق التعلم والاطلاع ؟

ولنقارن حال هؤلاء بحال طالب مجتهد أكمل دراسته باللغة العربية في بلاده ، ثم ذهب في بعثة دراسية الى فرنسا فاحرز الدكتوراه في الفلسفة والأدب بتفوق ، ولما رجع الى بلاده قام بحركة فكرية وأدبية عظيمة ، درّس وبحث ، ونقد ، وألف في أكثر فنون الادب كتباً قيمة نقل الكثير منها الى اللغات الاجنبية الاوربية وغيرها ، وما لبث ان صار عميد الادب العربي ورئيس المجمع اللغوي ، والغريب في الأمر انه ضرير ، فكم يقاس الدكتور طه حسين من الدارسين باللغة الفرنسية الذين ليس لهم همته وعزيمته ، وان كانوا في اتقان الفرنسية والعلم بها ربما يفوقونه ؟

والعبقري الاستاذ المرحوم عباس محمود العقاد ، لم يكن حتى من الذين درسوا دراسة جامعية باللغة العربية ومع ذلك فانه كان آية في الاطلاع والتفتح على احدث الانظار العلمية والفلسفية وتغذية الأدب العربي والثقافة الاسلامية بأحسن ما ظهر في عالم الفكر والمعرفة حتى اصبح قمة من قمم العلم والادب . وكانت اللغة الاجنبية التي يتقنها هي الانكليزية وانما تعلمها في السنوات الاولى من الدراسة الثانوية .

هذان المثالان وان يكونا من عالم الادب ، فانهما يجريان ذيلها على عالم العلوم .

وقصدت الاتيان بها الالماع الى جناية أخرى مما تجنيه الدراسة باللغات الاجنبية على الحياة الادبية في هذا الجناح من الوطن العربي .

ان بلاد المغرب كثيراً ماتشكو من ركود الحركة الفكرية وجمود القرائح وضعف الانتاج العربي وقلة القراء ودور النشر او انعدامها بالمرة وتأخر فن الطباعة العربية ، وان كثيراً من الباحثين يعللون ذلك بمختلف الاسباب ، ولكنهم قلما ينتبهون الى السبب الرئيسي في ذلك وهو انتشار الثقافة الاجنبية وغزو الفكر الفرنسي لشباب المغرب واختطاف الصحيفة والمجلة والكتاب الفرنسي للقارىء العربي وحلول المكتبات الفرنسية محل المكتبات العربية وعودة فائدة ذلك كله الى الكاتب والناشر والكتبي الفرنسيين . ولئن دام هذا ولم يعجل بتلافيه فسوف يصبح المغرب العربي كالسنغال يفكر باللغة الفرنسية وينتجبها ، ولأمر ما نجد المتعلمين بها اكثر المتحمسين لازدواجية لغة التعليم والاحتفاظ بتلقين الفرنسية حتى في التعليم الابتدائي كما كان عليه الحال ايام السيطرة الاستعمارية ، لأنهم على مايظهر يريدون ان يجعلوها قنطرة بينهم وبين الشعب يتصلون به عن طريقها ويتفاهمون معه بواسطتها .

فهذا مافعله التعليم باللغة الأجنبية في وطن عربي كبير في الميدان الاجتماعي والقومي ، ولن يكون اثره في المجال العلمي والتقني باحسن من ذلك اثراً ولا اقل ضرراً .

ويورد اناس مشكلة المصطلح العلمي والاختلاف فيه على قلة ماوضع منه ، ويجعلون ذلك عقبة في طريق تدريس العلوم باللغة العربية ، وما كان المصطلح ولن يكون عقبة في هذا السبيل ، وامره اهون من ذلك ، فاكثر المصطلحات

العلمية عالمية مشاعة بين الامم على اختلاف لغاتها ، ونحن العرب لابد ان نأخذ الكثير منها كما هو من غير ترجمة ، ولسنا في ذلك بدعاً من الناس ، بل ان اجدادنا فعلوا ذلك فقالوا الهوسانطريا والماليخوليا والديابيطس وغيرها من مئات الالفاظ التي لم يغيروها وابقوها على حالها فضلا عن التي عربوها واجروهـا على الموازين العربية فليسعنا ماوسعهم ، لاسيما والمصطلح ماهو الا لفظ يحتاج الى الشرح ولو كان عربيا ، فكيف يقف حجرا في طريق تدريس العلوم بالعربية .

ولقد وضع الافراد والجماعات واصحاب المعاجم العلمية آلاف المصطلحات التي تسهل مهمة مدرس العلوم فما عليه الا ان يجد في تحصيلها ، وعلى جامعاتنا ان تزود مكتباتها بهذه المعاجم ولوائح المصطلحات وتجعلها بمتناول يد الاساتــذة والمدرسين والطلبة والباحثين ، ولا تأخذ احدا من هؤلاء العزة بالاثم فيترفع عن الاستفادة من جهود العلماء الذين سبقوه في هذا الصدد ويستغني عن التزود بما قدموه من ثمار يانعة طالما تعبوا في قطفها ، فان العلماء يجب ان يكون خلقهم الانصاف والاعتراف بالجميل لذويه ومانال من نال الا بالتعظيم والاحترام لأهــل الفضل وماحرم من حرم الا بترك ذلك .

واحسب ان مايهول به بعضهم من اختلاف المصطلحات بين البلاد العربية وتعدد الاسماء لمسمى واحد انما هو من سوء التقدير وحب الشغب والا فأية لغة ليس فيها ذلك ؟ وانك لتجد المؤلف توضع له اللوائح الخاصة لتفسير مصطلحاته، ومع ذلك مارأينا أهل لغة يقيمون مثل هذه الضجة التي يقيمها كتاب العربيــة لتوحيد المصطلحات حتى صارت نهجا متبعا ، ما وقع الكلام على تعريب العلوم الا واثارها هذا الكاتب اوذاك ولو من سبيل التقليد ، وهي كانت احرى ان تعد

اجتهادات مشكورة تعين على التعريب ولا نصد عنه ، ولاسيما لمن يشكون من قلة المصطلحات ، كما انها في نفسها - اعني هذه المصطلحات المتعددة قليلة - وليست من الكثرة بالقدر الذي يدعيه المنكرون .

على ان مجمع اللغة العربية بالقاهرة الذي اصبح يمثل البلاد العربية جمعاء، قد قام بتصفية الكثير من هذا الخلط خطا خطوات مهمة في توحيد المصطلحات المتعددة وانتقاء الاصلح الواضح والدقيق الدلالة منها ، وذلك بمشاركة المجمعين السوري والعراقي ونخبة من اهل العلم والمعرفة من بقية الاقطار العربية الاخرى . فمن لم يطلع على منجزاته في ذلك فليطلبها من امانته العامة ولا يبقى حائرا يردد كلاما قديما لم يكن على صواب لما قيل لاول مرة فكيف به الان وقد صار اسطوانة مملولة ؟ والظن بل الواجب ان يستمر الوضع للمصطلحات من اهل العلم ، وان تتعـــدد المصطلحات لذلك ولكن مجمع اللغة والسليقة العربية او الحس اللغوي المشترك بين ابناء العروبة في المشرق والمغرب هما اللذان يختاران ويقران مايصلح .(أما الزبد فيذهب جفاء ، واما ماينفع الناس فيمكث .

هذا وفي نفسي شيء اخاف اذا ابديته ان ارمى بالبـــالغة وربما بسوء الظن . ولكن لابد ان اشير اليه ولو على سبيل الاحتمال البعيد، وهو اني ارى وراء هذه الضجة التي تحتدم في هذه الايام حول صلاحية اللغة العربية لتدريس العلوم وعدمها، أيادي تحركها وتنفخ في نارها وهي ابد ليست بنظيفة ولاتريد الخير للعرب ولا للغتهم وانما اصحابها يرون ويسممون حيرة بعض الاقطار الافريقية والاسيوية وخاصة الاسلامية منها التي استقلت اخيرا وملكت امر نفسها ، وهي ليس لها لغة تصلح للحياة العامة او لها هذه اللغة وتريد ان تكتبها بحرف ما من الحروف الاوفق لنطقها وهجائها ، وكثير من هذه الاقطار تتطلع للغة العربية والحرف العربي ،

فلصدها عن هذا التطلع وانشكيكها في قيمة العربية وصلاحية حرفها للكتابة الصحيحة ، يوعز المغرضون باثارة هذا الموضوع في الصحف والمجلات العربية بالذات ، ويوحون بطريق غير مباشر الى بعض اوليائهم - ومالي لااقول بتواطؤ مع بعضهم - الى الجهر بالحكم على العربية وحرفها بالعجز والقصور عن مسايرة ركب الحضارة العصرية وعدم الكفاية لمايتطلب المد الثوري الذي يكتسح البلاد العربية من تطور في وسائل تحقيق البعث العربي المادية والمعنوية ومنها اداة التعبير الملائمة للعصر .

ان أولئك الاخوان الافارقة والاسيويين اذا سمعوا العرب انفسهم يرددون هذا الكلام ويتهمون لغتهم اشنع الاتهام لابد ان يقر في انفسهم مايلقيه اليهم المستعمر الذي جلا عن ارضهم من الباب وعاد ليدخل اليها من النافذة ، لاسيا وهو لا يفتأ يمدهم بالعون والخبرة المدخولة ويقدم اليهم المشروعات الجاهزة في هذا المطلب وغيره من مطالب الحياة ، ولذلك فان المتأني والمتثبت منهم هو الذي يرجىء مسألة اتخاذ العربية لغة رسمية له او اصطناع الحرف العربي للغته ، وغيره يعزم ولا ينتظر ، ومن ذلك ماجرى اخيراً بين بعض دول افريقيا من عقد مؤتمر تحت رعاية منظمة اليونسكو للنظر في وضع أبجدية لكتابة لغاتها وتوحيدها . وهكذا نُضيّع على انفسنا وعلى اصدقائنا فرصاً ثمينة لا تعوض ، بجدالنا وتنازعنا، ولو كنا ابناء عصرنا حقيقة ، لاغتنمناها لبسط نفوذنا الروحي في اقطار العالم ، ولكنا احرياء ان نرفع رأسنا فخراً بما لنا من ثقافة عالية ولغة حية تمثل اكثر لغات العصر تقدماً لكسب مثل مالها من مقام وحرمة وتأثير في حياة عدد من الشعوب المنتشرة في اطراف المعمورة .

ولا يقال ان هذا الكلام عاطفي في مجال علمي ، فان العلم كل العلم ان

نهض بلغتنا وننشرها على اوسع مدى كما تفعل الامم الراقية . ولو لم يكن في تبني لغتنا وحرفنا من طرف امم اخرى غير عربية الا التثبيت وزيادة الايمان المؤمنين واقناع الشاكين المترددين لكان ذالك كافياً لحرصنا عليها وعملنا على رفع لوائها في كل مكان ، ولقمنا بتعاون ، مع هذه الاقطار الراغبة في تعلم العربية بوضع برامج سهلة وميسرة لتلقينها لأبنائها ونشر مجموعة من الكتب المفيدة التي تظهرهم على كنوز الثقافة العربية وتجعلهم يتذوقون الادب العربي قديمه وحديثه ويتصلون شيئاً فشيئاً بالفكر العربي والتراث الاسلامي حتى يندمجوا ولو بمدحين في الشعب العربي ويصيروا من اخص اصدقائه واقرب الناس اليه .

ان هذا « تكتيك » ، وليس عاطفة ، ولكنه يتطلب من العمل قدر ماعندنا من القول (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) .

حين يتحدث المثقفون ، وذوو الثقافة العلمية منهم بصورة خاصة ، حول لغة العلوم ينقسمون في العادة الى فئتين متميزتين يكاد يكون رأي افراد كل منها معروفاً مقدماً . فالذين تلقوا ثقافتهم العامة والعلمية باللغة العربيـــة يرون وجوب تدريس العلوم بلغة العرب ، ويسوقون لذلك المبررات والحجج في سعة اللغة العربية وقدرتها على التعبير وفي الاعتبارات القومية التي تدعو الى اتخاذ اللغة الوطنية لغة البيان العلمي مثلما هي لغة البيان الأدبي . اما الذين تلقوا ثقافتهم العامة والعلمية ، او العلميـــة على الاقل ، بلغة اجنبية فينحازون عادة الى الجانب الآخر ، ويسوقون الامثلة على عجز اللغة العربية عن مسايرة التقدم العلمي وعن استيعاب المصطلحات العلمية ، كما يسهبون في التحدث عن انسانية العلم ووجوب تنزيهه عن الشوفينية والعصبية القومية ، داعين بذلك الى تجاهل الاعتبارات التي تمليها النعرات الضيقة والى دراسة العلوم بلغة اخرى قد تكون الروسية أو الالمانية أو الفرنسية أو الانكليزية ... أية لغة شرط أن لاتكون اللغة العربية .

وتبعاً لهذه العادة المألوفة في الانقسام يكون متوقعاً في رأيي وجوب تدريس العلوم في جامعات بلادنا باللغة العربية ، مادمت طبيباً تلقيت ثقافتي العلمية باللغة العربية . ولن تزيد الحجج التي اقدمها لهذا الرأي في العدد أو القوة عما أورده الاستاذ الدكتور بشير العظمة في مقاله المنشور في العدد السابع والاربعين

من المعرفة . كما أن التبريرات التي اقدمها لتعليل ايمان بعض الملمين بقصور اللغة العربية عن أن تكون لغـــة العلوم الحديثة لاتتعدى بكثير ما أورده استاذنا الدكتور شوكت موفق الشطي في العدد الخمسين من هذه المجلة من كون هذا الايمان مبنياً ، في احسن حالاته ، على خصومة لاشعورية عند هؤلاء الملمين ترتد الى خوف من التجربة أوجهل باللغة أو الى أنانية مفرطة . ولكن الذي أريد أن أشير اليه هو اغفالنا أن نسوق في عداد الحجج التي نقدمها لتدريس العلوم باللغة العربية العامل النفسي الأصيل الذي مصدره حبنا لوطننا ولغتنـا وتمسكنا بها . والواقع ان اضرابنا عن ذكر هذا العامل ليس غفلة ، بل هو تناقل أوتهرب من ايراده خوفاً من أن نتهم بالشوفينية المقيتة وبالتعصب الضيق وباقحام الدوافع العاطفيـــة في ميدان لاسيادة فيه الا للامور الفكرية والواقعية المحضة .

ولكن هذا العامل موجود وراسخ في اعماق نفوسنا مها حاولنا اغفال ذكره او التمويه عليه بتفسيره تفسيراً سياسيا او قوميـا ، ناظرين مثلاً الى قيمة اللغة كأداة لربط الشعوب العربية المتباعدة في اصقاعها والعديدة في ملايين افرادها. فحتى لو أن العرب كانوا أمة كالبانيا لا يزيد عدد ابنائها عن مليون وربع ولا تزيد مساحة ارضها عن ثلاثين الف كيلو متر مربع لوجب أن تدرس العلوم لابنائها باللغة العربية ، كما تدرس بالالبانية في جامعة تيرانا . هذا التعلق العاطفي باللغة الأم في مجموعة بشرية هو دلالة من دلالات ثقة هذه المجموعة بنفسها كما هو نقطة ارتكاز لا بد منها لكي تنتج هذه المجموعة انتاجا حضاريا ذا قيمة اصيلة. ولا محل للخجل من الافصاح عن الشعور بهذا التعلق ، فكما أن الرجل لا يلام على حب قومه فهو

لا يلام على حبه للغة قومه . والذين لا يؤمنون بالحقائق الا بدلالة سلوك الآخرين بموجبها ، يجب أن يزوروا دولاً اوربية كثيرة ، لا يزيد عدد المتكلمين بلغات بعضها عن الملايين القليلة ، ليروا كيف تدرس كل العلوم في جامعاتها بلغاتها الوطنية ، وليروا كيف أن ابناءنا الذين أموا تلك البلاد لأن جامعاتنا ضاقت بهم يدرسون الطب والهندسة بالبلغارية او الكرواتية او غيرها من لغات اوروبا الوسطى ، دون أن يتهمهم أحد بأنهم يستقون العلم بأوعية لغـات غير علمية . وفي تشيكوسلوفاكيا ، البلد الموحد ، جامعات تدرس علومها بلغتين مختلفتين هما التشيكية والسلوفانية ، ولم يطعن أحد على ذلك بقيمة العلم التشيكوسلوفاكي او التكنيك التشيكوسلوفاكي او بالتعصب الذميم الذي عليه الشعوب التي تؤلف سكان ذلك البلد الموحد . كما أن أحداً لم يدع الى نبذ هاتين اللغتين الضيقتين وتدريس العلوم في جامعة براغ باللغة الفرنسية امس والانكليزية اليوم والروسية غداً والصينية بعد غد . . .

ان كل متعلق منا بلغته العربية ، وبالتالي كل محب لوطنه وامته ، لا بد من أن يصدم بالدعوة التي قدمتها لجنة من الخبراء الاجانب الى تعليم الطب في جامعة حلب المتيدة باللغة الانكليزية . والاستجابة الى هذه الدعوة هو تمييع الكثير من مقومات وجودنا في الميدان القومي والاجتماعي ، كما انه في ميدان التطبيق نكسة لجهود مستمرة وناجحة قامت بها سورية العربية في جامعة دمشق ، وفي كلية الطب فيها بصورة خاصة . وأكاد وأنا اكتب هذه الكلمات ألمح بسمات التشكك في ما اصفه من نجاح لجهود كلية طب دمشق تعلو شفاه كثير من الطبيين الذين تلقوا دراستهم باللغات الاجنبية في جامعات عربية واجنبية . والواقع ان هذا التشكك

دائم التردد في الاحاديث التي تدور حول القيمة العلمية لدراسة الطب بلغة عربية. وهو ينصب دوماً على خريجي جامعة دمشق من ابناء كل البلاد العربية ، على الرغم مما قدمه هؤلاء الخريجون لمواطنيهم من خدمات في بلاد المشرق العربي ، وعلى الرغم من ان التفاضل في القيمة العلمية لهذه الخدمات كان في غالب الاحيان تابعاً لشخصية الطبيب وميوله في متابعة الدراسة والاطلاع اكثر منه لقيمة الجامعة التي تخرج منها . وأسمح لنفسي ان اكون قليل التمسك باعتبارات اللياقة فأتساءل عن العلماء الاعلام ، بالمقياس العالمي لا بالمقياس المحلي ، الذين خرجتهم الجامعات ، من عربية واجنبية ، التي تدرس الطب باللغة الفرنسية أو الانكليزية في القاهرة وبغداد وبيروت . لقد عجزت اللغات الاجنبية في هذه الجامعات ومدرسوها الاعاجم من مقيمين وزوار أن تخلق وأن يخلقوا من طلابها البحّاثات الذين نفتقدهم في جامعة دمشق التي تعلم باساتذة عرب ولغة عربية . وفي كل البلاد العربية لا يزال الذين يكتشفون الادواء المحلية هم العلماء الاجانب والذين يخترعون الادوية الشافية لهذه الادواء المحلية هم العلماء الاجانب . ومثلما يرتبط اكتشاف البلهارزيا المستوطنة للقطر المصري باسماء بلهارز ومانسون وزملائهما قبل انشاء جامعة القاهرة ، يرتبط اكتشاف ادوية هذا الداء الوبيل باسماء بحاث المان وفرنسيين بعد انشاء هذه الجامعة ، ويرتبط في هذا العام اكتشاف دوائها الشافي باسماء بحاث اوربيين يقيمون في بال بسويسرا(١) . بل ان الجامعات الاوروبية والامريكية المشهورة التي

---

(١) في مجال البلهارزيا بصورة خاصة تكاد تكون للساهمة ذات الشأن التي يذكرها المؤلفون الغربيون هي الابحاث التي كتبت عن عرض بيلة الدم النهائية كأول الاعراض المميزة لهذا الداء .. وهذه الابحاث كتبها باللغة العربية اطباء العرب الاولون في القرون الوسطى ، ومن هذه اللغة ترجت الى اللغات الاوربية .

تدرس طلابها بلغات التقدم العلمي ، عجزت عن ان تخلق من ابنائنا ، الذين يبدون اثناء دراستهم فيها نبوغاً مشهوداً ، العلماء الذين نريدهم ونحتاج اليهم حين يعودون الى ديارهم ويعيشون في اجواء بلادهم .

ذلك ان اللغة لم تكن ابداً سبب التقصير العلمي . وجدير بنا ان نبحث عن هذا السبب في عوامل اخرى يؤدي اجتماعها او فقدها الى خلق بيئة خاصة ، او الى فقد هذه البيئة التي في احضانها تتكشف المواهب ويتحقق الابداع . هذه البيئة الخاصة مفقودة الان في انحاء الوطن العربي او انها ضئيلة اثر الوجود . ولعل من اسباب فقدها ضعف ثقتنا بنفسنا الذي يتظاهر باتخاذنا لغة غيرنا لغة علمية لنا، بالرغم من كل الامكانات التي تتمتع بها لغتنا، والتي طالما اسهب في تعدادها الدافعون عن قدرة اللغة العربية في هذا المجال . واذا كنت لم أعد الى تعداد هذه الامكانات فلأني اردت أن اقصر حديثي على العامل النفسي الذي يتحاشى ذكره المتحدثون في هذا المجال خوفاً من أن يتهموا بالتعصب وضيق الافق، فأنا أؤكد على ان استمرارنا على استبعاد لغتنا عن ميدان العلم هو استمرار في ابقائنا في وضعنا العلمي الحاضر ، وضع الإمّعة ، لان التبعية النفسية تسبق دوماً التبعية في التعامل وفي السلوك الحياتي ، والاعتراف دون خجل بتعلقنا بلغتنا وبايثارنا اياها على لغات الاجانب هو اعتراف بواقع ، اوبواجب ، لا بشين ، واخراج هذا الايثار وهذا التعلق الى ميدان التطبيق باتخاذنا لغتنا لغة علمية هو السلوك الصحيح الذي يجب أن ننتهجه ، والذي لامعدى لنا عنه لنتثقف علمياً ، ثم لتتحول ثقافتنا من مرحلة الاكتساب والتلقي الى مرحلة العطاء الصحيح ، القوي والأصيل .

طلب الي رئيس تحرير « المعرفة » ان اكتب في موضوع لغة العلوم وقد ترددت ايثاراً لراحة البال وبعداً عن الجدال في موضوع تمدد كتابه ، وتشعبت به وجهات نظرهم . ولكن اراء الزملاء الذين سبقوني الى الكتابة في (المعرفة) حفزتني الى مساندتهم برأي قد يختلف في تفاصيله ولكنه في جوهره صنو لما وفقوا اليه في تقرير واقعنا الدامي .

لقد حاول اكثر من كتب في موضوع لغة العلوم ان يكون موضوعياً منصفاً ، دون افراط في التعصب لرأيه ، ولكن قلة من هؤلاء الكتاب قد بالغت في آرائها ، حتى فاحت من مقالاتها رائحة الشخصية والانفعالية دون مبرر . فابطال الدفاع عن الأجنبية ، كانوا في غالبيتهم ، من الصنف الذي يغضب روح سيبويه ، في قبرها ، اذا نطق بلغة آبائه واجداده ، كما ان بعض المدافعين عن العربية ، كانوا من الصنف المعاكس تماماً ، يصعب عليهم تحريك السنتهم بغير الفصحى . هذه النماذج من المدافعين والمهاجمين هي مرآة صادقة ، تعكس نأمات وجدانهم الشعورية او اللاشعورية ، وتلبس الدفاع عن النفس ، ثوب الدفاع عن اللغة ، أو تلبس الدفاع عن العجز ، ثوب الدفاع عن تقدم العلم .

بعضهم حكم على العربية بالموت ، واخرجها من كشف اللغات الصالحة لتدريس العلوم ، واحب ان يقصرها على وصف الطبيعة ، ومناجاة الحبيب ، او التقرب الى الله بالصلاة والدعاء . وبعضهم جعل منها الأداة الطيعة الرشيقة ، التي تصلح للصيغ الكيماوية ، كما تصلح لاحدث المكتشفات : في الميكانيكا والذرة ، والصواريخ .

اللغة العربية لغة العلوم .

لاشك ان اللغة العربية صالحة كل الصلاح لتدريس العلوم ، على مختلف انواعها . وما سمعنا عن امة صغيرة اوكبيرة ، تدرس العلوم بغير لغتها .

فالعربية اوسع انتشاراً من الايطالية ،والتركية ، والبلغارية ، وعشرات اللغات الأخرى ، التي تدرس بها العلوم . ولا اظن احداً يجحد امكانيات العربية ، لغة السهولة في الاشتقاق ، والطوعية في ايراد المعاني بدقة وايجاز . ولكن هذه اللغة التي نقلت اليها كل العلوم المعروفة ، ابان ازدهار الحضارة الاسلامية ، قد هجعت بعد ذلك هذه القرون العديدة ، ونهضت الآن لتنهب الفراسخ ، وتحرق المراحل ، ولتأخذ مكانها في صف اللغات ، التي راكمت تعابيرها العلمية ، خطوة اثر خطوة ، وسنة بعد اخرى .

وصُدم جيل النهضة ، بهذا التخلف الكبير . وواجهوا لغــة جافة الجلد ، يابسة المفاصل . فعزفوا عنها يائسين ، ولاذوا بالأجنبية يدرسون ويدرسون بهــا ، الا قلة منهم ، ننحني اليوم اجلالاً لجهدها الجبار ، تصدت للعقبات تذللهــا الواحدة بعد الأخرى . وقد وقـع هؤلاء العلماء في اخطاء طفيفة ، لامندوحة للرواد عن الوقوع بها . فقام الآخرون الذين فقدوا قدرة المجاراة اما لخور في العزيمة ، او لجهل مطبق بلغة اجدادهم ، يشنعون عليهم ، ويصفونهم بالعقم ويرمون العربية بكل نقيصة ، ويقررون ، بصورة بعيدة عن الموضوعية ، استحالة تدريس العلوم باللغة العربية .

اخطاء الرواد

كان رواد العربية الاوائل من المتزمتين . يبرر لهم هذا التزمت ، وجود

الاجنبي المستعمر ، وخوفهم على العربية من ان تكتسحها لغة هذا المحتل القوي . ولكن هذا التزمت تطور ،مع الزمن، الى ظاهرة من ظواهر الضعف ،شأن المرض النفسي ، الذي يصبح مع الزمن علة وجود صاحبه . فاذا حاول طبيب ان يشفيه، انقلب حامله ، في دفاع مستميت عن علة الوجود وهدف الحياة .

وروادنا قد امعنوا في تزمتهم ، فاصبحت اللغة والتقعر فيها ،الهدف وضاع المقصود منها . واضحت عوضا عن ان تكون اداة لدراسة العلوم ، مُسَخَّرة لهذه العلوم في دراستها . وقد روى لي ان احد المتحمسين من اساتذتنـا ، الذين لاتنكر خدماتهم الجلى واياديهم البيضاء على لغة الضاد ، كان، رحمه الله، اذا قيل له: فلان الحقوقي او الاستاذ في مدرسة الآداب العليـــا ، يومذاك ، قال كذا : في موضوع لغوي يضحك من اعماق قلبه ـ ويجيب في تهكم بريء: ماشأن اللغة بمدرسة الآداب — اشارة الى ان اللغة ومعرفتها ، قد اقتصرت على كلية الطب ، من دون كليات الجامعة الاخرى .

وقد أدى هذا الحماس ، في احوال نادرة ، الى التقصير في خدمة العلم ، الذي يفترض ، ان استاذ مادته ، في مقدمة خبرائه على الاقل . وعليه ان يستخدم اكثر وقته في تتبع ما استجد في فروع العلم الذي يدرسه ، فاذا صرف القسم الاعظم منه — وما أقله — في تتبع موسوعات اللغة والغوص في بطونها بحثاً عن كلمة طريفة لم يُسبق اليها ضاع على طالبه الغاية ، التي دخل الكلية من اجلها .

وكانت الكلمة الناشئة تطلق على شيء في السنة الاولى ، فاذا غاص زميل آخر في مكان اعمق ، وعثر على لؤلؤة أنفس ، البسها نفس المعنى ، وحاول ان يقتل الكلمة الاولى ، حتى ضاع الطلاب في خضم الغواصين !!

ونحن لانزال في كلية الطب مثلا نطلق الوزمه والخزب على نفس المعنى ،

والسلمة والجدرة على معنى آخر . ومترادفات اخرى خرجت من مصانع دمشق والقـاهرة وتونس والرباط ، أو هي على وشك الخروج دون رقابة مجمعية ، أو اتفاق جماعي .

جهد مجامع اللغة

وقد درجت مجامع اللغة على نفس القاعدة ، الا في ظروف نادرة . فاعضاؤها في كثرتهم لغويون ، لاينكر علو كعبهم في ميدان اللغة ، ولكنهم مقتنعون ، في قرارة نفوسهم ، ان من حق اللغـة ان تصنع كلماتها كلها بنفسها ، دون حاجة الى تعريب او استعارة من لغات الدنيا الاخرى . وهذه هي العقبة التي خلقها هؤلاء العلماء ، واصطدموا بهـــا بعد ذلك ، حتى كادت تقضي على حماسهم في التحويل العلمي . كما اعطت المتشككين في قدرة لغتنا حجة وسلاحاً ، يشهرونها في وجه المخلصين من بناة التعبير العلمي العربي .

التعريب هو العلاج

والطريق الأوحد لشق هذا الطريق الوعرة المليئة بالصخور والأشواك هو فتح باب التعريب على مصراعيه ، وتضييق باب الترجمة على قدر الأمكان . فان المفردات التي تحتويها العلوم الدقيقة في : الميكانيكا والكهرباء والكيمياء والزراعة والطب والخ ... تزيد على خمسين الف كلمة ، اذا اهملنا الكلمات المركبة . وان لغات العالم باجمعها من اليابانية الى الروسية الى كل اللغات التي لاتمت الى اليونانية او اللاتينية بصلة النسب او القرابة ، قد ادخلت هذه الكلمات في لغاتهـا دون تعديل ، اوبعد تعديل ، يناسب نطق هذه اللغات ، وقد لاحظنـا في السنين الاخيرة تقاربا بين اللغات الاوربية نفسها ، ومحـاولة لتوحيد الكلمات التي اكتسبت قدامة تاريخية . فقد بدأ الفرنسيون يستعملون كلمــــة الارتماش

الانكليزية Thrill ، في مكان كلمتهم Fremissement التي يعرفها الأطباء منذ قرن. وادخلوا كل التعابير التخطيطية في امراض القلب بصيغها الاصلية . كما فرنسوا كلمة الشدة Stress، بعد ان حاولوا ترجمتها باشكال مختلفة .

طوعية التعريب

ونحن لانقترح ادخال الكلمات الأجنبية ، بصيغها الاصلية . بل نريد تعريبها بشكل ينسجم مع النغمة العربية ، ودون ان نخترع لها كلمة يصرف الطالب في تعلمها نفس الجهد الذي يصرفه في تعلم الكلمة المعربة . ما الفائدة مثلاً، من تعريب كلمة : سنتمتر ، ومبليلتر ، وهورمون وفيتامين ، وما هو الضرر في ان نلفظها : هورمون اوهرمون اوهارمون . اوفتامين اوفيتامين ، ولماذا لانبقى على كلمة البانكرياس عوضاً عن المعثكلة . والفواتر او النوبتر ، عوضاً عن السلعة والجدرة . بل لماذا لانعرب الكلمات التي لايمكن ان نترجمها بأي كلمة عربية تفيد معناها الاصلي . فكلمة : Synthèse مثلا يمكن ان تصبح سنتزة وتصرف ايضاً : سنتز يسنتز وستريس ستريس و Scanning سكننه . وقد نقول انه يملك عقلا مسنتزاً ! ! او هو مصاب بالستريس .

هذه امثال قد لا اكون وفقت بايرادها وانا لا اصر على فكرة معينة ، ولكن المهم هو ان لانتطح الصخر او نشرب البحر .

تاريخ اللغة الموحدة

كانت اللغة العربية في عهد الازدهار الاسلامي لغة العلم . واستطاعت ان تكون الأداة الصالحة لكل ما ترجم وعرب عن اليونان والهند وفارس ، ثم لعلوم جديدة وضعها العرب . وانتقلت بعد ذلك ، عبر الاندلس ، الى اوربا القرون الوسطى لتترجم من جديد الى اللاتينية – لغة الكنيسة والعلم وقامت اللاتينية

بدورها ، كلغة مشتركة بين العلماء ، فاستاذ جامعة بادوا الايطالية كان يستطيع ان ينتقل الى كوتنبرغ الألمانية ، ويدخل الى قاعة الدرس رأساً ليحاضر بلغة يفهمها الجميع . ويحدث نظير ذلك في اي مركز علمي آخر في طول اوربا وعرضها .

ومع ان الكهنة والعلماء كانوا يُستنفرون من طبقات شعبية ، الا انهم شكلوا طبقة خاصة كانت دائماً بعيدة عن الشعب ، مما جعل محاربتها في أذهان العامة ، تعني التحرر والانطلاق .

ولعل نسف العربية في الشرق ، واللاتينية في الغرب ، واحــدة من المصائب الكبرى التي أصابت سير العلم ، اذا نظرنا الى هـذه الحادثة التاريخية بمنظار الحاضر ، ولم نتأثر بالظروف المحلية التي أدت الى زوالها . المهم ان عدداً لا يستهان به من العلماء يأسف أشد الأسف لأن هذا السيل الجارف من الأبحاث العلمية الحاضرة لا يكتب بلغة واحدة .

القلق من تعدد لغات العلم

ومن هنا نشأ التفكير باختراع لغة جديدة لغة علمية أسهل من اللغات الحاضرة . يمكن تعلمها في بضعة أشهر ، كالانترلنغوا Interleingua مثلاً، التي يكتب بها ملخص لكل الموضوعات ، في عدد من المجلات العلمية الكبرى .

وتعبّر هذه المحاولة عن القلق الذي يساور العلماء بان الانتاج العلمي بلغات متعددة مضيعة للوقت والجهد ، ودفناً لآلاف الآراء القيمة ، التي لا تجد من يأخذ بيدها الى النور ، خصوصاً اذا كانت مكتوبة ، بلغة صغيرة لا يقرؤها إلا أهلها ، وليس هذا مقصوراً على العلوم بل يتجاوزه الى الفلسفة والأدب، فان آلافاً من الكتب لا تدخل العالمية من بابها الواسع إلا اذا ترجمت الى لغة يفهمها مئات الملايين .

كم من مفكر نابه ، او فيلسوف نابغ ، غمط حقه وأهملت أفكاره ، لانه لم يكتب الا بلغة مغمورة ، ولم يترجم له . وذهب منسياً او لم يكتشف إلا بعد قرون . ومن الأمثلة على ذلك : معرفتنا المتأخرة بان نصف افكار سبينوزا على الأقل ، مسروقة من ابن رشد الاندلسي . او ان الشيخ النفزاوي في كتابه الجنسي المبتذل قد سبق فرويد بمئات السنين ، الى ذكر الكبت والعقد النفسية .

كم كان مجدياً لو ان الناس اتفقوا على لغة واحدة لا تمت الى قومية معينة ، حتى لا تثير الحساسيات الاقليمية ، والنعرات الوطنية ، التي قضت على العربية واللاتينية . وجعلت العالم يصرف المليارات من اطنان الورق ، وألتار الحبر في ترجمة وتلخيص ، ومسرقات تحت شعار التصرف .

لقد ظن الناس في اعقاب الحرب العالمية الاولى ان الانكليزية ستصبح لغة الطب العالمية ، لأن اكثر من نصف كليات الطب في العالم ، آنذاك ، كانت تدرس بها . ولكن هذا الظن قد زالت مبرراته الآن ، لأن هذه اللغة لا يستعملها الآن ، اكثر من سبعمئة مليون من الثلاثة آلاف ، التي تشكل سكان العالم .

في انتظار اللغة الموحدة

وفي انتظار انتشار هذه اللغة الموحدة التي قد تتبناها هيئة الامم فتحل بها ازمة العلم الحاضرة وقد تنجح في ذلك ، اكثر مما نجحت في حل ازمات العالم السياسية .

ومع انه من المستبعد ان تنتشر هذه اللغة المثالية ، في وضع العالم الحاضر ، الا انها ستبقى حلماً يداعب خاطر العلماء حتى يتحقق .

وفي انتظار ذلك ، يجدر بكل امة ان تدرس العلوم بلغتها ، واللغة العربية لغة المئة مليون ، لا يعجزها هذا اذا خلصت النوايا ، وتوسعت الآفاق واهملت حماسة المدافعين عن اللغة الاجنبية وجلهم ممن يدافع عن جهله للغته ، التي كان عليه ان يتعلمها . فان من الحقارة ان يسمح لعربي ان يدرّس في جامعة عربية ، في اي مكان كانت ، دون معرفة عميقة بلغته حتى ولو أتى بالمعجزة في فنه واختصاصه .

الحاجة الى لغة اجنبية

غير ان الطالب الذي سيدرس العلم بلغته العربية بحاجة ماسة الى لغة كبيرة الى جانب لغته تعينه على التتبع والحركة ، ومهما ذكر في التقليل من شأن ذلك ، ومهما ورد من مبررات للحفاظ على الوضع القائم بالنسبة لجهل الطلاب المطبق باللغة الاجنبية ، مردود على أصحابه . فان لغتنا في وضعها الحاضر لا تزال في مخبر النحت والتشكيل . وجهل الطالب بلغة مستقرة يرمي تفكيره بالفوضى واحكامه بالتردد ، ويعيق تكامله حتى ولو كان طبيباً في قرية نائية ، لن يخاطب احداً بهذه اللغة . فان ما نريده من اللغة الأجنبية هو ان نحسن قراءتها دون جهد ، وان تستخدم في المطالعة السريعة . ولا يهم بعدذلك اذا استعملت او لم تستعمل في المناسبات الاجتماعية ، فان الحوماني ، الذي ترجم شكسبير الى العربية ترجمة نادرة الدقة ، لم يكن يجيد الانكليزية نطقاً ، وما كان بامكانه ان يستخدمها في صالون استقبال او مناسبة اجتماعية .

سبيل اتقان اللغة الاجنبية

لقد فشلت كل الجهود التي بذلتها كلية الطب في جامعة دمشق بتدريس

اللغة الأجنبية ، ويحق لجامعة دمشق ان تؤخذ تجاربها بعين الاعتبار فهي الجامعة الرائدة التي أعطت اللغة العلمية العربية تقاليدها .

وقد يُرَدُّ هذا الفشل الى اسباب عديدة ولكن السبب الراجح ، هو عدم توفر التصميم والجدية في تطبيق مقترحات اللجان المتعددة التي شكلت في مناسبات مختلفة . ومنها جعل اللغة الاجنبية مادة مسقطة كأمثالها من العلوم الأخرى ، وعدم اللجوء الى تدريس اجزاء من بعض المواد بهذه اللغة .

ويعود هذا الاهمال الى الخوف ، الموروث من عهد الانتداب ، من ان تطغى هذه اللغة على العربية ، لغة التدريس الرسمية . ولا مبرر في الواقع لهذا الخوف في عهد الاستقلال والسيادة ، لان اية لغة اجنبية لا يمكن ان تكتسح العربية ، مهما عظم شانها ، وهذه تجربة ثبت نجاحها في عدد من البلدان التي سبقتنا اشواطاً في ميدان العلوم ، والتي تدرس بلغتها القومية .

ان اتقان لغة اجنبية الى جانب العربية ، يمنحها قوة ويغذي الطالب بمصادر لا يمكن الحصول عليها في العربية ، وينمي فيه روح الاستقلال في الدراسة والاعتماد على النفس في تكوين شخصيته العلمية ويبعده عن روح المدرسة الثانوية ، التي لاتزال تعشش في تربيتنا الجامعية ، دون ان تمتد لها يد قوية تجتث جذورها ومخلفاتها ، من عقول المدرسين والطلبة على السواء

الخلاصة

وخلاصة القول ان تدريس العلوم باللغة العربية امر لا يناقش ، فهو ضرورة قومية واجتماعية وهو في عالمنا الحاضر صفة ملتزمة بجامعات الدنيا باسرها ، حتى التي لا تعد لغتها الا بضع ملايين ، غير ان هذه اللغة العلمية يجب

ان تعتمد على التعريب وصوغ الكلمات بلباس عربي دون التقيد بحرفية النطق ، ودون اهتمام بالتشويه اذا اقتضت الضرورة ذلك .

كما ان هذا التعريب يجب ان يتم تحت اشراف الجامعة العربية وبالاتفاق مع مجامع اللغة والعاملين في هذا الحقل جميعاً ، وان يصار الى نشر ما اتفق عليه باوسع وسائل الاعلام . وان يصدر بذلك قاموس يتجدد كل عامين ، حتى تدخل هذه الصياغة المستحدثة الى مؤلفات المدرسين فيألفها جيل الطلبة الصاعد .

كما ان على علمائنا ان يوضحوا لهذه التعابير مهما خالفوها في قرارة نفوسهم ، فان باب الاجتهاد يجب ان يسد بعد الاتفاق ، لان فوضى الكلمات التقنية تفقد المؤمنين بلغتهم ايمانهم بها وحماسهم للكتابة بها .

كما ان على المترجمين الكارهين لغة اجنبية تسد النقص في تعابيرنا ان يخففوا من غلوائهم .

وليذكر المخططون والمعقدون للمستقبل ان حياة الانسان قصيرة ، وان عليهم ان يمهدوا لحياة جيل جديد يجب ان يؤلف جزءاً من ركب العالم ، لا قوقعة على هامش الدنيا ، تجتر ذاتها ، وتنطوي في احتضار مستمر .

لن نفقد الامل بمستقبل اللغة الواحدة لعلوم الانسان كلها ، لغة لا قومية لها ولا اصول معينة ترد اليها ، قد تكون كما قال شو لغة تشبه الانكليزية وتكتب بحروف عربية دون تنقيط او تكون شيئاً اخر لا يخطر لنا الآن على بال .

غير انها ستكون اداة موحدة لانسانية الانسان ، يفهمها علماء الارض

جميعاً ضرورة يشعر بها كل من حاول ان يقرأ العلم بعدة لغات . وفي انتظار هذه الولادة العسيرة ، لا بد من ان تسند العربية في دراستنا لغة كبيرة . اما ان نجعل من لغة اجنبية سبيلا الى دراستنا ، فامر قد كانت له بعض المبررات قبل ربع قرن ، ولكن القطار قد فاته الآن وفقدت حيثيات هذه المبررات منذ زمن طويل .

تدريس العلوم بالعربية فرض قومي ، وربما كان من اقوى العوامل في تحقيق الوحدة الفكرية بين اقطار الامة العربية جميعها .



سلسلة

كتب قومية

تصدر عن وزارة الثقافة والارشاد القومي ، سلسلة كتب قومية ، تهدف الى اغناء ثقافة المواطن العربي بالبحوث التي تمس اهم شؤونه ومرافقه ، ومشاغل الفكرية والقومية . وتوزع بأسعار زهيدة رغبة في تعميم الفائدة منها ، وتحقيقاً لهدف اساسي من اهداف الوزارة .

وفيا يلي بعض البحوث التي تصدر في هذه السلسلة الجديدة ، خلال الاشهر القادمة من عام ١٩٦٥ :

التسيير الذاتي والتجربة اليوغسلافية — للدكتور صلاح وزان

« صدر في الحلقة الاولى »

التخطيط الاشتراكي — للدكتور عبد الله عبد الدايم

« صدر في الحلقة الثانية »

المغتربون العرب في أمريكا الشمالية — للدكتور جورج طعمة

« صدر في الحلقة الثالثة »

القومية العربية في القرن التاسع عشر — للدكتور توفيق برو

« صدر في الحلقة الرابعة »

الفن والقومية — للدكتور عفيف بهنسي

« صدر في الحلقة الخامسة »

الموقع الاستراتيجي العربي — لهيثم الكيلاني

« صدر في الحلقة السادسة »

الاشتراكية في البلدان المتخلفة — لمحمد الجندي

« صدر في الحلقة السابعة »

الحلقة التالية في موضوع التحويل الاشتراكي الزراعي في سورية

لأحمد محمد الزعبي

الكتاب والموضوعات

الى الأديب المهجري

جورج صيدح

رسالة بقلم نظير زيتون

كلمة المعرفة

عندما كانت (المعرفة) تطبع رسالة نظير زيتون الى جورج صيدح ، اطلت على رئيس التحرير رسالتان من الشاعر صيدح ومن الأديبة ماريانا فاخوري ، صاحبة مجلة (المواحل) في البرازيل . وقد اعرب الاستاذ صيدح عن تقديره لكاتبة الأديبة ، ورسالتها الصحافية ، وخدماتها للغة امتها وادبها في المهاجر ، كما حملت رسالة السيدة ماريانا ، أرق العواطف وانبلها الى الشاعر العربي الكبير ، معلنة ألا كلمة لها تقولها للنشر حول (العتاب المر) الذي نشرته (المعرفة) موجهاً اليها من جهة ،

والى جمهور (ادبناوادباؤنا) من جهة ثانية . وقد كان لها كلمة في الموضوع، فطوتها ، ولم تكن في البدء سوى همسة (خاصة) بينها وبين الشاعر الباحث المؤرخ ، اودعتها رأيها فيما يمكن تداركه من قصور في التأريخ للحركة الأدبية المهجرية .

يبقى ان الذي غنمناه من هذا الحوار الأدبي ، هو اطمئناننا الى ان الحركة الأدبية في المهجر لم تنطفىء ، وان هذه الشرارات التي تنوّر وكود الحياة الأدبية بين الحين والحين ، لاتلبث ان تصعد الى رؤوس الشعل ، لتصل أدب الرواد بأدب الأجيال الجديدة .

اما كلمة الاستـــاذ نظير زيتون ، بعد انقضاء المعركة ، فاننا نغنم منها اضواء جديدة ألقاها على ادب المهجر ، الى جانب عاطفة متقـدة يبثها بديباجة منمقة مسجعة تتفرد في حبكها ، ويثابر على صب افكاره في كؤوسها ... حتى يجيء زمن نقول فيه : بدأ ادب المقامة ببديع الزمان وانتهى بنظير زيتون .

* * *

اخي الحبيب جورج

رسالتك السافرة الزافرة الهادرة التي وجهتها الى صديقنا عبد اللطيف اليونس نزيل سان باولو (مجلة المعرفة عدد نيسان) وقد امتد بها النفس فنشيت اكثر من عشرين صفحة ، هذه الرسالة التي ابرزت ادباء المهجر في مباذلهم واكاد اقول في مهازلهم ، هزتني وأيقظتني من سباتي المتجهّم ، وان شئت فقل كسلي المتلمّظ وهلائي المتبرّم وقد استرسلت اليه واسترخيت وأمعنت فلا نشدة ولا حركة ولا كلمة ولا نأمة ، ولا ادري ماهو منشأ هذا الكسل المستعصم ، وهذا

الاسترخاء التمظلم ، وهذا السبات المتظلم المتسدم . أهو الزهادة ام السيادة ام البلادة ، اهو التأفف ام التصوف ، والتقزز ام التحرز .. وعلى كل حال فشكرا لكتابك المفتوح الذي ايقظني وفتح عيني لتقع على المعركة التي اضرمت نيرانها واطلقت قذائفها صديقتنا القديمة السيدة ماريانا دعبول فاخوري صاحبة (المراحل) فانتصبت ذاهلا مشدوها حزينا منقبض النفس ، وعهدي بها كنسيمات الفجر رقة ولطافة ، وكالحمام دعة وسلاما ، وكالنسر تحليقا واقداما ، وكأنفاس الزنابق قلباً وخلقا ، وكالوادي بشاشة وخصبا وكثلج لبنان سريرة وجهيرة ، وكالارز قوة وظلالا وعنادا ، فما بالها وقد جمعت شتى المواهب والمناقب ، والمقاصد والموارد ، مابالها ، ماخطبها تتنكر لك وتصليك معركة كلامية لاطائل وراءها ولا جدوى ، وانت كما عرفناك وعرفك الجميع من ارهاط عروبة وعذوبة ، ونبالة واصالة ، وامراع وابداع ، ومحبة ونجدة ، ورحابة ونجابة ، مابالها وانت من اعراق سماحة ورجاحة ، وسراوة ونباهة وحفاوة ، واباء وافتنان ، وعبقرية واريحية ، وعصامية ومثالية ، وشهامة وعمامة ، مابالها تخاصمك وتحمل عليك ، وقد جمع بينكما كثير من وشائج القربى المعنوية والفكرية وقد كان التقدير بها اجدى ، وانت كما عرفك العالم العربي ، اسديت الى ادبنا المهجري بكتابك العملاق (ادبنا وادباؤنا) يدأ جليلة حفيلة بجيلة هي اكرم العطاء والسخاء ، والبذل والجداء ، وآية الفكر الوضاء ، والهمة الشماء ، وعنوان الحب والبر والوفاء ، والعزيمة والمضاء ، ومثال الغيرة القدسية على الكلمة العربية الزهراء ، على تواضع واستحياء ، غير متمدح ولا متبجح ولا متمجمج ، وشهد الانصاف والعدل انك نفحت الادب العربي المهجري وبالتالي الادب العربي

الحديث ، من عطاء الروح والقلب والفكر ، ماتتصاغر امامه كنوز الذهبان والدر ، وما تقصر عنده آيات الحمد والشكر ، واهاتيف الاعتزاز والفخر ، تنطلق بسّامة لماحة معطارا كثغور الزهر ، في استقبال الفجر والبدر ..

فماذا كوفئت ايها المتصوف الجواد ، وماذا نلت غير المرارة والكربة والسهاد ، وقد قل المتشكرون وكثر المتذمرون ، وماذا اجتنيت غير جحود وعناد ، وخصام رعاد ، وغير غصة يشرق بها المداد ، فترتفع شهقة اسى في الفؤاد ، واذا الفضل رماد في رماد . واذا الحواري رسول الكلمة المهجرية وناشر اعلامها في الوطن العربي مصلوب على الاعواد ، ولو انصفوا لنصبوا لك تمثال التقدير والوداد ، متضوعاً بعبير الأوراد .

أما الحكومات العربية فلا تطمع لك منها في مكافأة — وان معنوية — ولا تسل عنها فانها في شغل شاغل عنك علها تراعي كتابك وتقديره .

ولنتحدث عن اولئك الأدباء المهجريين الذين ملأت مئـــات الصفحات باخبارهم وآثارهم وعلو اقدارهم ، ومجالس اسمارهم ، ومذاهبهم في اشعارهم وافكارهم ، فما بال هؤلاء الاحياء وقفوا جامدين امام كتابك ، والكتاب كتابهم ، والمحراب محرابهم ، والرحاب رحابهم ، والابواب ابوابهم ، والمجد ركابهم ، والمذاكي العراب عرابهم ، وخمر النباهة شرابهم ، مابالهم والغيث تسكابهم ، والسحاب جلبابهم ، والقلائد اثوابهم ، وعباب البحر عبابهم ، ونفح الملاب ملابهم ، وعقاب الشعر عقابهم ، والعجب العجاب عجابهم ، مابالهم لاذوا بالسكوت والصمت المطبق ، ومعظمهم فازوا في صفحات الكتاب بمثل حصة الاسد ، فلا كلمة ولا خطاب ولا جواب ، إلا العتاب والضباب والحجاب وحيناً وخز الحراب وتارة تنعاب الغراب ..

فما هذا أيها الصحاب ، أوَ هذا كل ما عندكم في الجواب ، أم هو تيهٌ ودلال انسجاماً مع قول الشاعر :

تيه دلالاً فانت أهل لذاكا وتحكم (فالشعر) قد اعطاكا

ولا حرج عليك يا أخي جورج ان تتمثل بقول الشاعر الآخر :

اغرّك مني ان حبـــك قاتلي وانك مها تأمري القلب يفعل ..

ولكني رأيتك يا شاعر الاغتراب ويا ابن خلكان ويا قوت الأدب المهجري تزرع الجميل في موضعه وفي غير موضعه ، غير نادم وغير آسف وغير طالب شكر ، فاذا توالت الصدمات ، وخابت الظنون ، لم يتجهم لانسانيتك وجه ، ولا انقبض لنداك كف ، حسبك ماتصيبه من لذة ذهنية وبهجة روحية ، وطمأنينةوجدانية .

ولقد كنت كما تعلم يا أخي جورج ويعلم الآخرون ، شديد الحرص على كرامة الأدب العربي المهجري وجلال قدره وذكره ، والتنني بنثره وشعره ، حرصي على مكانة اعلامه وعلى عقود تآلفهم وتكاتفهم ، وكنت ادفع عنه المتحاملين لبوءة في دفع الاذى عن أشبالها ، كما كنت امر بمزالق بعضهم فالوذ بالسكوت من باب الصفاء لا المياء ، والسماحة لا الكشاحة ، فليست الخصومة السخيفة من شأني ولا التمدح والمن والاستعلاء من بضاعتي ، ولا نبش القبور من شيمتي ، ثم ان للقراء عيوناً وعقولاً هي آلة التمييز ، ولا بدع أن أحار أشد الحيرة في تفسير المواقف السلبية الناشزة التي يجنح اليها بعضهم حيناً بعد حين وانساءل : أي خير يجنيه الأدب العربي المهجري من ورائها ، افي سبيل الغطرسة والعطرسة والانانية والتمدح والتشمّخ والتفخّر وما يشاكلها من قشور لاتقوم عليها جسورٌ وقصور ، نقطع ماوصلنا ، ونذهل عما بذلنا ، وننقض ماغزلنا ، ونمزق مانسجنا ولبسنا ، ونهدم مابنينا واعلينا ، ونبعثر ما كنزنا ، ونكسف ما ابدعنا ؟

ولقد ارمضني وحز في نفسي يأخي جورج انك تصطنع الايادي وتزرع الجميل ، فلاتحصد سوى الجحود والكفران ، وكم خجلت عن غيري حينا قرأت في رسالتك هذه المقاطع التي تقطر ألماً ومرارة « الحق ، الحق اقول لك (والخطاب لعبد اللطيف اليونس) ودع مالك الذي انفقته على كتابك ان كنت متكلا على قراء يشترونه في المهاجر ، وافبر آمالك ان كنت تتوقع من المهاجرين تقديرا وعرفان جميل ، ووسع صدرك مااستطعت التوسيع لاستقبال سهام اللوم وقرصات الدلع ممن ذكرتهم في كتابك ، وصواعق الغضب ممن نسيتهم او جهلت وجودهم .

« وانكى من هذا ان تهدي كتابك الى تسعين اديبا في المهجر ولاتسمع خبر وصوله اليهم الا من ثلاثة عشر فقط لاغير ، بينما سبعة وسبعون منهم يسكتون عن الهدية كأنها لاتعنيهم او كأنك تطفلت على موائدهم او لأنهم لم يجدوا اعتراضاً على مانشره المؤلف عنهم ، الماذا يزعجون انفسهم بكتابة سطرين اليه ؟ »

ثم هذا المقطع « كنت بخيلا بالاهداء من هذه الطبعة الاخيرة (الثالثة) لان التجارب السابقة علمتني وأدبتني فلم ارسل الى سان باولو سوى خمس عشرة نسخة ، ولم يكتب لي الا ثلاثة من المهدى اليهم (هم شفيق معلوف وتوفيق ضعون وجورج لبان) فلم يفجعني تكرار المأساة لانني توقعتها وتذرعت بحلمي لاستقبالها ، فتكسرت السهام على السهام ، باقل مايمكن من الالام » .

اقول ، ونحن لانلوم المهاجرين اذا تجاهلوا (التقدير وعرفان الجميل) فطبيعة حياتهم التجارية تنأى بهم عن مشاغل الأدب وأثره البالغ في نهضة الشعوب

كما ان معظمهم لا يقرأ . اننا نجد لهم بعض العذر وخصوصا بعد ماطفت المحقة ونسيان الفضل على مجتمعنا مقيما ومغتربا ولكن ماهو عذر الادباء في سكوتهم عن كتاب يهدى اليهم ، وموضوعه منهم وفيهم واليهم ؟ نعم ماعذرهم في صمتهم فلا يكلفون النفس كتابة كلمة تنبىء — على الاقل — بوصول الهدية ؟ واذا كان الادباء انفسهم لا يلقون بالا الى كتاب يتحدث عنهم في صفحات مشرقة متضوعة ويتهاونون في القيام بواجباتهم ، وهم مرآة المجتمع ، فهل نلوم التجار ورجال الاعمال المادية اذا لم يحسنوا التقدير وعرفان الجميل ؟ ليس بين ادبائنا المهجريين من لم يقرأ الآية الحكيمة « واذا حُيّيتم بتحية ، فحيوا باحسن منها او ردّوها »، فما معنى الاستخفاف بابسط مبادىء السلوك الاجتماعي ؟ هذا مسلك لم نعرفه في ادبائنا المهجريين قبل اليوم ..

وأية صورة لادبائنا المهجريين ترتسم في ذهن القارىء العربي ، مقيما ومغتربا ، اية صورة معنوية تنعكس على مرآة النقد حينا نتحاسد ونتشازر وتعصف بنا المنجهية وتقول مالا نفعل ، ونفعل مالا نقول ، وحينا نشتبك في معارك وحملات صحفية شخصية تنأى بجوهرها عن المناظرة والنقد الموضوعي والتوجيه الفكري والادبي والفني ؟

كان القلم حتى اوائل العقد الرابع من هذا القرن ، نعم كان القلم في ايدي بعض الصحفيين المهجريين ، شمالا وجنوبا ، تارة هراوة ، وطوراً مدية ، ومرة مسدسا ، ومآسي القلم الصحفي المهجري لاتزال منا على ذكر، ولكن تلك الجاهلية الصحفية لم تلبث ان اضمحلت وذهبت رياحها، فاذا القلم المهجري ورد ينضح عطراً، واغرودة تُشرق بدرا ، وبحر يلقي درّا ، وسحائب تهطل خيرا ، وينبوع يتفجر خيرا . .

اني ارفع بصري الى رفاقنا في المغترب القصي ، وكلٌ عزيزٌ علينا غلي ،

واناجيهم بحنين مشبوب ، وكأني بي وبهم مغلوبون على امرنا ، فأسأل واسأل : اين المعارف وقد ذابت سحرا في قوافيكم ، وكؤوس الحب وقد تساقتها حنانا اغانيكم ، ورهرهة الزنابق وقد تفاوحت في روابيكم ، ونضرة الزرع وقدامرع في مراعيكم ، والنخيل تساقط رطبا جنيا في صحاريكم ، وسفائن الصندل والذهب واللؤلؤ وقد غصت بها موانيكم ؟

أين رؤى القلب والروح منعكسة على مرائيكم ، والحداء وبغام الظبـاء يتناديان في بواديكم ، وعقود الشهبان وجواهر التيجان تأتلق في مراقيكم ، ودنان الخمر تسمر في مغانيكم ، وقوافل الاستبرق والخز والبرفير تتقاطر في فيافيـكم ، والندى الفواح يفيض في اياديكم ؟

أين التين والزيتون ، أين البيـــادر وقطوف مجانيكم ، وعذارى الشعر تهادى على شواطيكم ، وهينمة الياسمين وكتكتة الزنبق في غواديكم ، والعسل المصفى يجري في سواقيكم ، وانطلاق الضحك في سماريكم ، أين تهاويل الالوان والانوار وقد انتصبت قوس قزح في مجاليكم ، والكلمة الزهراء تتفتق وحيا في أماليكم ؟

افهذه كلها اساطير ، تمشرت بها الغفلة في الدياجـــير ، ونامت في زوايا الدهارير ، على سرير من التعطير والتكبير ؟

افهذه كلها كلمات ضمتها الاضابير ، ونامت عنها المحاذير ، وتناءبت التدابير ، فعصفت بها الاعاصير ؟

يازقزقة العصافير ، وعندلة الشحارير ، ولألاء الالهام في الاسارير ، كيف تعبث بها التقادير ، وكنا نمهدها راسخة التعمير ، في نضرة الازاهـير ،

وانغام المزامير ، ورؤى الجمال البواكير ، وفوح القوارير ، ومطارف المقاصير ، ولكني لا اصدق ، وهيهات ان اصدق ، فالجوهر السامي لا يأخذه صدأ ، ولا ينصل لونه ورونقه وبهاؤه .

ولا تظن ياعزيزي جورج اني بالغت وغاليت ، وجاوزت الحد في ماأثنيت ، وفي ما استقصيت وأمهيت ، كلا ، لقد كنت عدلا في ماوصفت ووشيت ، فأولئك الفاتحون الميامين الذين شادوا للأدب العربي في بلاد قصية غريبة الوجه واللسان ، دولة راسخة الاركان ، شامخة البنيان ، باذخة الايوان ، أرضها جمان وذهبان ، وماؤها من ينبوع حكمة وعرفان ، وخمر تساقاها قس وسحبان ، وسماؤها رؤى والحان ، وشمسها بلاغة وبيان ، وهواؤها تحنان وريحان ، وانفـاس مستعرة الحنان ، فواحة الوجدان ، ولواؤها عدنان وقحطان وغسان ، اقول ان اولئك الفاتحين الميامين الذين بنوا للعربية كعبة سجدوا فيها لعرائس الالهام ، هم اهـل التاج والصولجان ، جديرون بالثناء والشكران ، والاطناب في مدحهم وان غلا ليس اطنابا ، والاعجاب بفتحهم وان تناهى ليس اعجابا ، والحب مبسوطاجناحه عليهم ليس تحبابا ، وقليل وان زدناهم ترحابا ، والقنا لهم اقواساً وانصابا ، ولنا ان نعذر هفوتهم العابرة ، فقد علمتنا الحكمة ان لكل جواد كبوة ، وينهض . . .

* * *

اعود الى التحدث عن مؤلفك الفريد (ادبنا وادباؤنا) وموقف الادباء المهجريين امامه ، فهل انصفناك وقدرنا لك هذه القلادة الثمينة النفيسة التي طوقت بها جيد الادب العربي الحديث ، كما طوقت اجياد الادباء المهجريين ؟

فأنا ياعزيزي جورج ، وبيننا من صداقة الكلمة مالا تدانيـــا صداقة ، لا ابرىء نفسي من تهمة التقصير ، بل اعترف باني كنت في طليعة القصرين ، فلقد

توانيت غير عامد على اعجاب بمؤلفك شديد ، وشكر لايدبك لازيادة فيه لمستزيد ، وهذا مادلت عليه رسائلي اليك بريدا تلو بريد ، ولكن هل قضيت الواجب وابرأت ذمتي من دين ادبي وسددت الرصيد ؟ كما يقولون بلغة الصيارفة والتجار ؟ فنشرت سلسلة من المقالات ادرس فيها فصوله واصوله ، واحكامه واعلامه ، وما انبث فيه من مناقدات ومناقشات ، وتعريف وتصنيف ، ومناهج ومدارج ، وآراء واستقصاء ، منوها باصالته وجزالته ، وفضائله ونضارة خمائله ، ونفاسة اعلاقه ، واتساع آفاقه ، ونفاذ اعماقه ، مشيرا الى براعة في العرض والاداء ، والتنزه عن الاهواء ، والتغاضي عن المعايب والاخطاء ، فجاوزت السوآى الى الحسناء ، وانتخات الافضل وطويت الأهزل ، وكشفت عن المعالم وصقلت التراجم ، وعرفت بالاغفال والمغمورين ، من شعراء ومنشئين وناشئين ، في اسلوب طريف وذوق رهيف وذهن في تريف ، وبثت واعليت للأدب العربي البحري البناء ، ونشرت ما كادت تطيح به يد العفاء ، بمجهودك الطالب النبيل في اذاعة محاني الادباء ، حيث العربية صماء بكماء ، وحيث المادة هي النداء والصلاة والدعاء ، ولولا ما في كفك وصدرك من ثراء وانداء ، وما في عزيمتك من مضاء ، وما في خلائقك من همة شماء ، لما وضعت كتابك الوضاء ولا وقعت عليه ابصار القراء . والحق يشهد انك سعيت وبذلت واعطيت وجهدت نفسك وعانيت ما عانيت غير مُتجر وغير مرتزق بل محتسباً لوجه الادب العربي والفكر العربي ، فاذا فضلك فضفاض سابغ ، واذا كتابك كوكب بازغ ، واذا الكلمة على اسلة قلمك طرفة صائغ

ولا أعني بهذا الوصف انك بلغت الغاية واوفيت على النهاية ، وان يكن مؤلفك هو الاوسع والاشمل والاكمل في بابه وموضوعه ، فهناك فسحة لقضايا كثيرة تثير النقاش والدرس والتحقيق ، والاستدراك والتعليق ، وهناك ايضاً

بسطة في مجال التعميق، وتصحيح بعض المقاييس والموازين، وللنقاد اذواق وآراء ونظرات متفاوتة قد تتفق في اشياء وتختلف في اخرى، مادام مقيـــاس الفكر والابداع والجمال غير مقيد وغير محصور وغير محدود، وهذا يدل على ان كتابك رحب الآفاق، فسيح الجوانب متشعب الفروع، شاسع الابعاد، مترامي الحدود، وقد كنت فيه العارض والناقد والرسام والمصنف (بمعنى التأليف، وتمييز الاصناف) والشاعر والمترجم والمعلق والقاضي احيانًا. وكان طبيعياً بعد هذا ان يلقي كتابك في اذهان القراء متعة المناقشة الفكرية والمنهجية والغوص في اعماق الانسان والانسانية. وهذا مطلب عزيز المنال في عالم التأليف، اذن يلوح لي انك ادركت اسباب تهاوني في تقريظ الكتاب، فلو شئت ان ألبي رغبتي واطلق نفسي على سجيتها وامد النفس واوفيك حقك واقوم بعملي كاملا لاحتجت الى كتاب برأسه، غير اني اذا كنت من الكتـــابة في يسر، فاني من الطباعة والنشر في عسر ... ولله الحمد والشكر!

ومن الفضائل التي تستحق التنويه في كتابك انك تحاشيت عرض الادباء المهجريين عراة اوفي ثياب رثة مخلولقة، فمـا تصديت لحياتهم الخاصة ونمراتهم ونزواتهم وعقدهم النفسية، في حين ان ميخائيل نعيمة ـ وبارك الله في حياته ـ على رفعة قدره ورجاحة فكره وسماحة صدره ونباهة ذكره، عرض رفاقه في الرابطة القلمية اشباه عراة في اسمال متهتكة، فقص من اخبارهم الخاصة ماقص وروى من حكاياتهم ماروى، وكان الاولى ان تطوى (سبعون المرحلة الثانية وجبران) هذه واحدة، واخرى انلميخائيل نعيمه ـ حرسه الله ـ في النقد الادبي نهجا خاصا ومقياسا خاصا وذوقا فنيا خاصا في نفسية خاصة (الغربال وسواه) وقد دلنا في مترجم لنفسه في (سبعونه) الثلاثة على انه صمصام لا ينثني ولا يلين

قوي الارادة والايمان حتى العناد ، شديد الاختيال والاعتزاز بالنفس في كثير من الخيلاء ، وهو الى هذا عنيف قاس في هجومه ودفاعه لايجامل ولا يتسامح ولا يعذر ولا يرحم احداً في مجال النقد الادبي ، حتى اقرب الاصدقاء الى قلبه وفكره ، فيبدو في مواقفه النقدية والوعظية معلما يخاطب تلامذة ، وهو فوق هذا اديب صوفي ، ولكن صوفيته على مازى تنبع من فكره المروض ، لامن قلبه وروحه ، ثم تراه اذا اتى فبميزان الصيدلي الدقيق الذي لايمتنع عليه وزن النور والهواء والجزء الالفي من الغرام ، ومقياسه لايختلف كثيرا عن مقياس سرعة الصوت والنور ودوران الارض والافلاك ، وله في ذهنه القمة مجهر خارق لاتستعصي عليه رؤية أدق الاشياء وابعدها ، وليس نادرا ان تنهار القمم امام منظاره ، اما ثمته فتمتنع على اقوى المناظير ، ولا ازعم انه لايخطىء ولا يعثر ، ولا ازعم ان ميزانه ومقياسه ومنظاره لاتخدعه ولا تضله ، ولكن هذا مذهبه ومجراه وهواه ، وماكانت العصمة الا لله دون سواه ، مع هذا نحبه ونعجب بخصب مواهبه وغزارة مادته ونرى فيه عملاقا من عمالقة الفكر ، وعطاء عبقريا قلما يسخو بمثله العصر ، وحسبه انه لم يتجر بقربان ، ولا استمرأ لقمة سلطان ، ولا شهقت عينه على ارجوان وذهبان ، ولا انحنى امام اوثان ..

فما قول رفاقنا المهجريين لو ان جورج صيدح كتب مؤلفه (ادبنا وادباؤنا) بقلم ميخائيل نعيمة وجرى في النقد والتشريح مجراه ، ونحا في الغربلة منحاه ، وركب مطاياه ، وسار على خطاه ، واعتمر عمامته وتوكأ على عصاه ، واستعار ميزانه ومقياسه ومنظاره واحصى ماراه ، نعم مأقولهم وما رأيهم ، أكانت تنبسط اسارير وجوههم وتفتر ثغورهم وتنشرح صدورهم وتقر عيونهم وتطيب نفوسهم ويشمخون بأنوفهم وتهتز طربا وفخرا جوانحهم ؟ لا والله ، اذن

فالحمد لله اذ هيأ جورج صيدح لهذه الرسالة الادبية التاريخية التي اداها بايمان وامانة ، ولنخفف قليلا من خيلائنا اذا لم اقل من الوهتنا .. ولنتواضع قليلا لله والادب ..

ثم ماهي المآخذ على كتاب جورج صيدح ؟ انها لاتمس الجوهر ، ولا تفضي الى اللباب ولا تنقض سطرا واحدا من موضوعية الكتاب واهدافه الادبية والتاريخية والحضارية والقومية التي هي الاساس في هذا الكتاب العربي المشرق وان شئت فقل في هذه الموسوعة المهجرية ، مع هذا لا ننكر انه وقعت في الكتاب بعض الهفوات ولكنها سطحية لاتخلو من مثيلاتها حتى الموسوعات العالمية الكبرى ، مثل ضبط بعض التواريخ والروايات وخلو التراجم من بعض الاسماء على ضآلة آثارهم ، والاسهاب والاطناب في ترجمة بعضهم ، والاختصار والاقتضاب في ترجمة آخرين ونقصان قوائم المؤلفات لبعض من ترجم لهم ، واثر بعضهم في الحركة الادبية والقومية والفكرية ، والاطوار التي مر بها هذا الادب ، كيف نشأ وكيف ترعرع واشتد ساعده وكيف انطلقت كلمته الحية المتحررة من الجمود والرواسب والتقاليد . ولكن المؤلف الفاضل ـ وبارك الله في شيخوخته الفتية الخصبة ـ اكتفى بما وصل اليه الجهد وبما ادركه بعد البحث والاستقصاء ولا لوم عليه ولا تثريب .

ثم أي مؤلف تاريخي او لغوي او ادبي او موسوعي جاء كاملا شاملا عاماً مستوفياً كل الشروط ؟ وضع الجوهري معجمه المشهور (الصحاح) فجاء الفيروز ابادي بالقاموس المحيط واستدرك ما فات الجوهري كما صحح بعض اخطائه ولم يلبث ان لفظ عبارته المشهورة متمدحاً متبجحاً : «خذوا لغتكم من اعجمي .. » ثم جاء الزبيدي بتاج العروس واستدرك ما فات الفيروز ابادي

وأصلح أغلاطه ، وفي القرن المنصرم برز الشدياق بمؤلفه اللغوي العظيم وهو « الجاسوس على القاموس » ، فصحح وأصلح ما التبس وغمض على الفيروزابادي فخس هذا بعد رفعة ، ونشر ابن المنظور معجمه الكبير لسان العرب وهو اوسع المعاجم العربية وأحفلها بالشواهد والشرح وأقربها الى التدقيق ، ولكن عين الشيخ ابراهيم اليازجي النقادة وقعت على اخطاء كثيرة فنشر في مجلته (الضياء) التي كانت تصدر في القاهرة سلسلة من المقالات درس فيها ما وقع في اللسان من اغلاط ، ثم جاء صديقنا توفيق قربان العلامة اللغوي فنشر في مجلة مجمع اللغة العربية الدمشقي بحوثاً متسلسلة حول اغلاط (اللسان) وقد أحصى منها المئات .

ووضع ابن خلكان ابو العباس كتابه التاريخي المعروف باسم (وفيات الاعيان) وقد ترجم فيه لأعيان العلم والادب وما اليها وكان جامعاً وافياً ، غير ان فخر الدين بن شاكر الكتبي الحلبي انعم فيه النظر فرآه ناقصاً وعندئذ استدرك على ابن خلكان ما فاته ذكره من اعيان آخرين في مؤلف ضخم سماه (فوات الوفيات) .

وهناك شواهد كثيرة على ان الكتب الامهات لم تخلُ من نقص او سهو او خطأ حتى اذا وقعت عليها عيون النقاد الثقات استدركوا ما فات وأصلحوا الهفوات . فهل يتصدى احد ادبائنا المغتربين لكتاب جورج صيدح ويستدرك عليه بمؤلف جديد ، يتلافى به ما فات كتاب (أدبنا وأدباؤنا) ؟ لا أظن أحداً يتصدى لمثل هذا الاستدراك خشية أن يبزو مؤلفه هزيلاًضئيلاً .

وهناك من استقل النصوص التي وردت في (ادبنا وادباؤنا) ورأى انها لا تكفي للتعريف بعدد من الشعراء المغمورين، فضلا عن الصحفيين والكتاب

والمفكرين والخطباء غير المشهورين شهرة واسعة في الوطن العربي حيث ما زالت آثارهم الأدبية شبه مجهولة مع انه قامت للنثر دولة باذخة شامخة ، كان لها اكبر الأثر في توجيه الشعر المهجري وتطوره ورفع مستواه ، ولعلنا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان الشعر المهجري هو ابن شرعي للنثر المهجري الذي انتشر انتشاراً واسعاً عن طريق الصحافة التي كانت مدرسة العامة والخاصة هناك أو ان النثر المهجري هو السبيكة الذهبية التي اخذ منها الشعر المهجري وصاغها قصائد متألقة تملأ الابصار والاذهان . غير ان التوسع في النصوص النثرية على شكل يتم صورة الادب المهجري وحياة المهجر شعراً ونثراً ، يحتاج الى كتاب ضخم يوازي في عدد صفحاته (ادبنا وأدباؤنا) كما ان هناك عقبات ومشقات يتعذر تمهيدها اهمها البحث والتنقيب عن مجموعات الجرائد والمجلات والكتب المطبوعة في المهاجر الامريكية منذ استقرت اقدام السوريين واللبنانيين في العالم الجديد ، ومراجعتها واقتباس ما هو جدير بالنقل والتعليق ، فمن هو الذي يتوفر على هذا المشروع ويصرف همته اليه ؟ من هو الذي يضحي بالسنوات الطويلة والأموال الطائلة في هذا السبيل ؟ وهل يتسنى له الكشف عن كنوز الصحف والكتب المخبوءة في ظلمة الأقبية والدهاليز او التلف والضياع ؟ في رسالة تلقيتها من الدكتور روبرت حـــداد استاذ التاريخ في كلية سميث في نورثمبتون من اعمال الولايات المتحدة الامريكية ، ونجل الشاعر المهجري الكبير ندرة حداد الحمصي ، ان جامعة هارفرد المشهورة دفعت مبلغ خمس مئة دولار لقاء تصوير مجموعة اعداد السائح بسنواته الخمس والاربعين (بالميكروفيلم) وقد بلغت نفقة التصوير ثلاثة آلاف دولار ، ومن دواعي الاسف ان المجموعة كانت شبه متفتتة ، فاعجب بعـــد لجامعة هارفرد التي تنفق الوف الدولارات

مقابل الحصول على مجموعة جريدة عربية واحدة كانت تصدر في نيويورك ، على حين اننا لا نلقي بالا ولا نكترث لكنوزنا الصحفية المهجرية التي نلقى فيها اصدق واكمل صورة لادبنا المهجري ولحياة جوالينا الاجتماعية بجميع مراحلها واطوارها في العالم الجديد ، ولا شك ان هذه الحياة التي عاشها المهاجرون في العالم الجديد لها شأن خطير من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والمسلكية والتاريخية .

هذه واحدة واخرى ان الشعراء الذين جمعوا قصائدهم ونشروها في دواوين مطبوعة يرجع اليها القراء لا يجاوزون نصف العدد ، اما النصف الآخر فلم يتسن له لسبب او لآخر طبع دواوينهم ، وهكذا نامت قصائدهم في بطون الجرائد والمجلات التي يصعب الوصول اليها ، نذكر على سبيل المثال اربعة شعراء حمصيين في سان باولو وهم ميشال مغربي ونصر سمعان وموسى حداد والمرحوم حسني غراب ثم توفيق بربر وابراهيم بسط والشاعر المدني شقيق القروي الخ .

وهذا المشروع العظيم لا يعدو كونه ضرباً من الاعجاز ، فلنكن منصفين إذن ، ولنعطِ جورج صيدح حقـه من الشكر ، وخصوصاً بعدما اعترفت مدارسنا بفضل كتابـه الذي اعتمده الطلبة رأس المراجع في دراسة الأدب المهجري .

ولننتقل الى الحملة التي اثارتها صديقتنا الصحفية المجاهدة السيدة مريانا دعبول فاخوري صاحبة مجلة (المراحل) بحجة انك يا عزيزي جورج لم تنصفها أو حاولت أن تغمطها حقها أو أن تخفض من مكانتها ومكانة مجلتها وأثرهما في الأدب المهجري بدليل ما استشهدت من عباراتها ، ولا أدري هل نشرت شيئاً

في مجلتها من هذا القبيل،لأنها حجبت عني شذا مجلتها لاحجب الله نوره عن احد..

ربما كنت أعلم الناس بسلامة طويتك وتسامحك ونبالة مقاصدك قولا وعملا، وعزوفك عن الاساءة . واذا كانت السيدة مريانا قد رأت انها مغبونة في تقديرك لها والتعرف بها والاشادة باثرها في الحياة الصحفية المهجرية فقد تكون على شيء من الحق، ولكنها ليست على شيء من الحق في اثارة هـــذه المعركة. العتاب الأخوي الرقيق الحواشي، الزنبقي المتون، اللؤلؤي الحروف كان أولى وأجدى، والنقد الموضوعي الرزين كان أجدر واقوى أثراً في النفوس، ولنذكر في هذا المجال الآية الحكيمة (إدفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليّ حميم) .

لقد رأت السيدة مريانا أن شعلة الصحافة المهجرية يكاد ينضب زيتها ويسكن لهيها وتتضاءل جذوتها فصبّت في مصباح هذه الشعلة (١٩٥٥) جراراً وجراراً من الزيت المصفى فبرزت مجلة (المراحل) على حين أن شمس الصحافة العربية في العالم الجديد بدأت تغرب وتغيب، هذا فضل لانتكره عليها ،ولولا جهادها المتواصل لعاشت مجلتها اقصر العمر وانطوت رسالتها الصحفية فجاوزت عقدها الأول وقفزت الى الثاني والى الثالث ان شاء الله .

ثم ان للسيدة مريانا فوق هذا ماضيها الأدبي الحافل، بدأته في الارجنتين حيث عكفت على تدريس الطلبة لغة آبائهم العربية وكان لها من ملكتها الأدبية مايؤهلها لمكانة رفيعة في الأدب النسوي الى جانب غيرتها على أهل القلم ولكنها لبّت نداء الأمومة وانصرفت الى الحياة الزوجية وكان زوجها الياس فاخوري فسح الله له في جنانه راوية قوي الذاكرة متوقد الذكاء، يتذوق الأدب وينقده ببراعة الجهبذ كما كان يعتني بصداقة الادباء ويرى فيها غذاء لقلبه وفكره . ثم

قضت بعض الظروف الاقتصادية بانتقالها من بونس ايرس الى سان باولو حيث افتتحا حانوتاً تجاريا ، واني لأذكر بكثير من الحنان سهراتنا الاسبوعية في منزلها المضياف ، وكانت هذه المجالس الأنيسة التي تشبه الندوات مقصورة على صفوة من الأدباء فتمتزج عصفة الصهباء بأنفـــاس الشعراء ،وترددالحناجر غرد البلغاء . ويتناقش الأدباء في الجديد والقــــديم ومالكل منهما من مذاق ورواء . وتروج سوق المفاكهات وما اليهـــا من أشياء ، مباسطات ظليلة الافيـــاء ، ومطارحات رقيقة الاداء . وسقيا لتلك الايام وما اليها من اضواء واصداء ، ومن مآثر المرحوم الياس اني اهديت اليه نسخة من كتابي (يسوع المصلوب)واخرى من مؤلفي (روسية في موكب التاريخ)فكان لهذه الهدية الادبية وقع عظيم الأثر في نفسه إذ قدم لي سفتجة على احد المصارف المالية بتوقيعه غير انه ترك مكان القيمة ابيض وقال لي حدد أنت المبلغ الذي يرضيك ويكافىء جهدك الأدبي ، فأكبرت هذه العاطفة السخية وأجبته ان عاطفتك اكبر من ان نعين لها ثمناً ورددت السفتجة و كأني أصبت مالا كثيراً ، وموقفه امامي لايختلف تقريباً عن ٠وقفه أمام سائر الأدباء ، فسلام على روحه العربية الحرة .

ثم سدّد القدر سهمه الى تلك الأسرة السعيدةفأصاب عميدها في الصميم ، وكانت الفاجعة غير المتوقعة فادحة مروعة تهد الجبال ولكن أرملتـــه السيدة مريانا وهي المشهورة بقوة الشكيمة لم تستسلم ولا وهنت عزيمتها بل مضت تجاهد وتغالب المصاعب التي استقام لها الأمر وعادت الى ميدانهـــا الأدبي فأنشأت (المراحل) والحياة كما عرفناها مراحل ومزالف ، نحن مطاياها ونحن فرسانها ، والقدر هو الآمر المتحكم المتعسف ...

وبعد ، فالكلمة الصادقة الصالحة ، الكلمة الحلوة الطيبة الصافية ، الكلمة النورانية النابعة من القلب والروح هي السبيل وهي الشعلة التي تشق الدياجي وتقود خطواتنا وترتفع بنا الى ذروة الانسانية والجمال . حيث يستشف للنفس الحجاب وتنعكس عليها ومضات من أنوار الحقيقة الأزلية .. فلنأخذ بها سبيلاً وغاية .

وختاماً يا عزيزي جورج ، اذا كان لابد لي من شكر ازجيه فالى السيدة مريانا التي أتاحت لي - بغضبتها - أن أحبيها خاصة وان أحيي رفاقنا الادباء المهجريين عامة ، وان أشيد بذكرك وانوه بفضلك على الادب العربي المهجري الذي نظمت عقوده المتألقة في كتابك النفيس ، وما هو الا أحدى نوافلك الغنية بمعناها ومرماها ومجناها عن كل شكر وثنـــاء . ولعل كلمتي وهي من الوفاء الالف والياء ، تقشع الغيمة الدكناء ، وتبسط ماغشي القلم من انطواء ، وتمحو ما سال به المداد من لفحات الرمضاء ، فتقضي على القطيطة الشلاء ، وتعيد الود والصفاء وتحكم اواصر الولاء ، واذا دمة الصداقة البطلاء ، تتسكب واحة خضراء جنية الثمار وارفة الأفياء .

واسلم يا أخي جورج ، سوريا بنفحة غسانية تغلبية ، ولبنانياً بكلمة صداحة عبهرية ، وباريسياً بعباءة عربية ، وبارك الله في شيخوختك الخصبة الفتية . وعشت للعروبة والمثالية صناجة ذهبية .

حكاية الأبلق المشؤوم

وهواية الأسراب الطائرة

للدكتور كاظم الداغستاني



يذكر صاحبنا ، فيما يذكره من ايام لهوه ، هواية اولع بها حينا من الزمن فشغلت جانبا كبيرا ، من نفسه وتفكيره ، وهي هواية تربية الحمام وتطيير اسرابه التي كانت اكثر شيوعاً في حي الصالحية منها في غيره من احياء دمشق.
كان الهواة في بلاد الشام ، كما هم عليه حتى اليوم ، يفترقون في نوع هذه الهواية ، فمنهم من كان يُعنى بتربية اسراب الحمام ، لينعم ويتلهى بالنظر اليها ، ومنهم من كان يطلب الربح او الاستفادة في ان يزاوجها ويستولدها ، ولكن اكثرهم كان يقتنيها ليتلهى بتطيير سرب منها ، يختلف عدد طيوره في الكثرة والقلة ، لكنه يكاد يتجاوز الثلاثين او الاربعين طيرا على الغالب .
وتطير الاسراب وتعلو في الجو ، فيختلط بعضها ببعض ، ثم تفترق فيعود كل سرب ليحط على محطه ، أي على سطح مطار صاحبه الذي طيره ، وذلك عندما يستدعيه صاحبه للعودة اليه ، وقد يأتي طير طائش او شارد ، غريب عن السرب ، فينضم اليه او يلتحق به ، وقد اعتاد ان يطير مع جماعة الطير ، ويخطىء او يلهو ، بحط مع غير جماعته فيقتنصه صاحب السرب ، بان يلقي الشباك عليه ، وبذلك يصبح مالكا له لايحق لصاحبه الاول ، اذا عرف الموقع الذي حط عليه ، ان يطالب به ، الا بعد الاتفاق مع صاحب السرب الرابح ، وذلك بان يشتريه مجددا ، او ان يفتديه بما يقارب ثمنه . ويجد الهواة في اختلاط اسرابهم ثم افتراقها ، وعودتها الى محطاتها غانمة او خاسرة ، نوعاً من المقامرة او النضال الذي من شأنه ان يزيد الولع والتعلق بهواية تطيير الحمام التي يستمر بها الكثيرون ممن لم يتذوقوا لذتها.
أما كيف يستدعي صاحب السرب طيوره لأن تعود اليه ، فتهبط على محطها ، فهو ان لكل سرب طيراً فرداً قوي الجناحين ، وفي مقتبل العمر يسمونه (الطارد) والطارد هو زوج الطائرة الانثى التي يبيت معها في وكر واحد ، ولكنه يطير بدونها مع السرب ، الذي يتألف كله من طيور ذكور ، لايجوز ان

يكون بينها انثى ، تخلق البلبلة أو الفوضى بين افراد السرب . ويحتفظ صاحب السرب بالطائرة الانثى ، وهي نصف مقصوصة الجناحين ، فاذا اظهرها وجعلها تصفق بما بقي من جناحيها ، هوى الطارد من عليائه في الهواء ، يريد المكان الذي رآها تصفق فيه ، ويتبعه السرب كله ، ولصاحب السرب حينئذ ان يدع الطارد والسرب من ورائه يهبط على المحط ، او ان يخفي الانثى عن نظر الطارد ، ويعود فيلوح للسرب بيده او بعصاه ، فيعود السرب الى الاعلى ليحوم او يحلّق،والطارد القارح المارس ، هو الذي ينقض انقضاضاً حينا يرى انثاه تصفق ، تاركاً السرب لوحده ، بل يطير محوّماً بعد ان كان محلّقاً ، ويدور من دون السرب ، باسطاً جناحيه على مهل ، وكأنما يدعو اطيار السرب كلها لكي تنتبه في نزوله ؛ وتعرف الاطيار منه ذلك ، بعد ان اعتادته والفته ، فلا تلبث قليلا حتى تجيب دعوته .

لقد كانت اشكال طيور الحمام الاهلي المروفة في دمشق كثيرة ، يكاد يتجاوز عدد الطيور الاصيلة (الخارقة) [illegible] الستين . والطيور الاصيلة ذات الابوين المتجانسين ، هي التي احتفظت باشكالها الموروثة مع الالوان والمقاييس المتعارف عليها . وكلما صحت اشكال هذه الطيور وكلت مقاييسها ، زاد ثمنها ، وقد كان يبلغ ثمن الطير الاصيل (الخارق) منها ليرة ذهبية او ليرتين في بعض الاحيان .

ومن اشهر اشكال الاطيار الاصيلة المعروفة في دمشق وضواحيها ، الطير الابلق ، وهو ذو لون رمادي او ازرق ، وجناحين ابيضت فيها القوادم والخوافي العشر بياضاً ناصعاً ، وللطير الابلق رقبة لامعــة تتموج بين لوني الاخضر والازرق ، وخدان ابيضـان ، ومنقار عاجي اللون وعينـان لامعتـان محمرتا الاجفان . ومنها الطير المسوّد ، وهو ذو لون اسود فاحم،وجناحين أبيضي القوادم

والخوافي ، ومنقار عاجي اللون يعلوه خط ابيض رفيع ، وعينان عسليتان سوداوان لامعتان ذات اجفان ارجوانية . ومنها الطير الماوردي ذو اللون الابيض الموشى بوقع الظهر منه بخطين احمرين عريضين ، وعنق متموج ، يعلوه خدان احمران ، وتاج احمر . ومنهـــا الارش ذو اللون الابيض الناصع المجعد الريش ، والذنب الاسود العريض . ومنها البربريسي والمرجاني والبني والكركند والتألجي الاحمر والاسود وغيرها من الطيور الاصيلة الغريبة في انسجام اشكالها وتنـــاسب الوانها ومقاييسها .

ومنها الطيور العادية التي لا اشكال معينة لها ، بل هي خليط من الوان لا انسجام ولا تناسب فيها ، وتسمى المرقعة او المنمرة ، وهي نتاج ابوين مختلفين في جنسيها وشكلها وتناسب الوانها . ويرخص ثمن هذا النوع من الطيور ، فيبلغ في بعض الاحيان ثمن الطيور العادية التي تباع لتأكل لحومها .

وسرب الاطيار الممتاز ، هو السرب الذي يتألف من اطيار اصيلة ، ذات اشكال والوان صحيحة ، قوية الاجنحة غير متقدمة في السن ، متمرنة على الطيران ولو لمدة طويلة .

الحكاية ...

ولقد كان من اسراب الطيور المشهورة في سكة الصالحية ستة او سبعة اسراب ، من بينها سرب بيت الافندي وسرب شعبان وسرب احمد تشطيبة وسرب حليم ملكة . ولقد اشتهر حليم ملكة صاحب هذا السرب الاخير بأنه غاوي حمام من الطراز الاول ، فطيوره قليلة ولكن ليس بينها طير يمكن ان تجد فيه عيباً ، فكلها اصيلة خارقة ، كاملة المقاييس صحيحة الالوان . واشهرها كان الابلق الذي ذاع صيته في حي السكة وما جاوره ، حتى ان احد الغواة في حي ابي جرش المجاور ، دفع لصاحبه ليرتين ذهبيتين ثمناً له ، فلم يشأ ان يبيعه هذا الطير الابلق

بل استبقاء في سربه ، لكنه وضع في انفه خزاماً صغيراً ازرق، واستبدل بخلخالاته البيض خلخالات زرق ، خيفة أن تصيبه عين حاسد فتؤذيه .

وجاءت الحرب العالمية الاولى وخيم ظلام النفير العام (السفر برلك) بوحشيته الرهيبة على دمشق ، كغيرها من مدن سورية ولبنان ، وكان حليم ملكة مسيحياً يسكن مع ابويه واخوته داراً صغيرة في زقاق النصارى وهو الطريق الضيق القائم في وسط سكة الصالحية ، ويشتغل في نقل البضائع والامتعـــة على عربة يجرها بغلان . وجاء يوم الغى فيه العثمانيون في سورية الامتياز الذي كان يعفي المسيحيين في سورية من الجندية ، وشمـــل (السفر برلك) جميع الناس من الرجال فاصبح حليم ملكة مجنداً رغم انه اوشك ان يكون كهلاً ، وصادرت القيادة العثمانية في دمشق احد البغلين فبقي لديه بغل هزيل واحد ، وانذرته السلطة بان يلتحق بالجيش فتوارى عن الانظار اياماً ، وما زال متواريا ، حتى توسط له وجيه في الصالحية ، فالحقوه بالخدمة الخفيفة ، وتبعته الوساطة والتوصية فاختاروه آذنا يعمل في مكتب اليوزباشي حسني بك الذي كان يقيم في بناية (المنزل) وهو بناء العابدية المعروف الذي مابرحت نوافذه تشرف حتى اليوم على ساحة الشهداء في دمشق .

لقد ساءت حالة حليم ملكة بعد انقطاعه عن عمله ، فباع بغله الهزيل ، وباع العربة واتبعهـــا بامتعة اخرى ، ولكنه لم يبع الا بعض طيوره لان الطيور الخارقة الباقية ، كما كان يقول ، كانت جزءاً لا يتجزأ من حياته ، وكان حليم ملكة رجلا ذكي الفؤاد مرهف الحس ، نال في ايام صباه قسطاً من الدراسة، فاحسن القراءة والكتابة ، وحفظ كثيرا من الكلمات والجمل التركية ، ودأب على عمله بنشاط واهتمام فكان لا يكاد يذهب اليه في الصباح الباكر ، الا ويحمل

باقة صغيرة من زهر او ورد يقتطفها من حديقة بيت الافنـدي ، او من احد البساتين المجاورة ، فيضعها على منضدة اليوزباشي ، بعد ان عرف انه كان يسر لمرآها . وهو لايبرح مهتما بنظافة ادوات المكتب ، وترتيب اساسه على شكل فيه من سلامة الذوق ما أرضى عنه رئيسه الضابط العثماني وحببه اليه ، فاعانه على امره ، واحسن اليه . وبلغ هذا الاحسان من نفس حليم ملكة الشيء الكثير وانصرف الى عمله باخلاص وتفان ، ولم يبق له مايتلهى به في وقت فراغه القصير سوى هذه الطيور الباقية ، التي ينشرها باكرا على السطح ، قبـل ان يذهب الى عمله ، فيطعمها ويسقيها وبكشها في بعض الاحيان مرة واحدة ، ثم لايلبث ان يعيدها الى اوكارها الخشبية في غرفة السطح . وكان اكثر مايكون اهتماما بهذا الطير الابلق ، الذي مابرح شهيرا بين الغواة . وكان اطرب مايكون على نفسه ، ان يدخن نارجيلته في الصباح الباكر ، وهو يمتع نظره بطيوره ، بعد ان طيرها واستمادها سريعا ، وبابلقه الخارق وهو (يهوج) بينها ، فيتنقل من موقع لآخر ، مصفقا بجناحيه ، يختال مرحا بحزامه الفضي وخلخالاته الزرق .

وفكر حليم ملكة ، انه قد آن له ان يجد لطيره الأبلق ، طائرة تبيت معه في وكره ، فقد أصبح يخشى على هذا الطائر ان يدفعه طيش شبابه ، وما هو عليه من قوة ومرح الى ان يعود يوماً ، الى حيث كان ، في حي الميدان ، البعيد عن حي الصالحية فيخسره وقد رآه في الآونة الاخيرة ، وهو يطير مع السرب ، كثيراً ماكان ينفرد لوحده ، متجهاً الى غير مايتجه اليه السرب ، ثم لايلبث ان يعود اليه ، فيطير على مقربة منه ، او متجاوزاً إياه في العلو .

ولكن انى لحليم ملكة ، ان يجد الطائرة البلقاء الخارقة التي تليق بهذا

الأبلق الجميل الغالي والتي يريد ان يستولدهامنه فراخاً يمكنه ان يبيع كل واحد منها بليرة ذهبية او اكثر . وليست البلقاء الخارقةغالية الثمن وحسب ، بل ان البحث عنها يحتاج لوقت غير قصير ، وهو مأخوذ بعمله ، كمجند في موقع ممتاز يحسده عليه الكثيرون من زملائه وجيرانه . وقال بينه وبين نفسه : سأجد له طائرة على كل حال ، ان لم تكن الخارقة التي أريدها فدونها ولو الى حين ، ان مطاره لايعجبني ... والهت حليم ملكة مشاغله الكثيرة في مكتب اليوزباشي بعد ان زادت الثقة به فزاد عمله ، وزاد عددالحاسدين الناقمـــين عليه في دوائر القيادة . ولم يعد يفكر كثيراً بالطير الأبلق والطائرة التي يجب ان تلازمه في وكره ، ليامن عليه معها شر الهرب .

ومضت ايام ... ثم جاء يوم كان الوقت فيه صباحاً مشرقاً ، صافي السماء ، رخو الهواء. وقال حليم ملكة في نفسه وهو يصعد السلم الى (الشرفة) فوق السطح وقد أوشكت الشمس ان تشرق ،ما أجمله من يوم لكي أكش فيه!

واخرج سرب الطيور من اوكارها ، ومن بينها الأبلق الخارق ، والقى على ارض (المشرقة) (تبذيرة) صغيرة من الذرة البيضاء ، فاقدمت الطيور على التقاطها بسرعة خاطفة ، ثم ما لبث ان طيرها من ارض المشرقة الى المحط فوق السطح ، وصفر لها رافعاً بيده (الكشاشة) السوداء ، فطار السرب جميعه بقوة ونشاط ، وبدأ يحوم قريباً من مطاره ، ثم يرتفع ويعلو في الفضاء يساعده على ذلك صحو الجو والهواء اللين الذي من شأنه ان يدفع الأطيار الى اقصى علو يمكنها ان تصل اليه . وغامرت نفس حليم ملكة رعشة من الزهو والغبطة بسرب اطياره ، هذا الذي ليس في الحي كله من يقتني مثله في هـذه

الايام ، كما اعترف له بذلك بالامس رسلان ابو عمر ، الذي يشرف على ادارة سرب بيت الافندي ، حينما قال له : انت الوحيد في السكة يا حليم .

ولم تطل غبطة حليم ملكة ، فقد رأى ، وهو يتأمل بشغف وخيلاء سرب اطياره يحلق متموجاً لامعاً في الفضاء ، ان الابلق ، الذي اعتاد ان يميزه عن بقية الاطيار حتى في اعالي الجو ، بدأ ينفرد عن السرب ثم يعود اليه ثم ينفصل عنه بعد قليل ويتجه غير وجهة الأطيار بعد ان حلق من فوقها . وقال سليم ملكة لنفسه : « ماذا ؟ هل طاش الابلق ؟ وهل اكتشف من العلاء محله القديم في حي الميدان حيث كانت له فيما مضى طائرة ؟.. » لقد تسرب شيء من الخوف الى قلب حليم ، فعمد الى طيوره يستدعيها من عل ، ويصفق لها بالطائرات ذات الاجنحة المقصوصة ، عسى ان يعود السرب مسرعاً ، ويعود معه الابلق الطائش ، بعد ان انعزل عن السرب وحلق من فوقه . ولكن الابلق استمر يحلق وحيداً ، ثم دار دورتين في الفضاء ، كمن يتحفز لطيران بعيد المدى ، ومضى يخترق الجو مسرعاً متجهاً الى الجنوب ، حيث يقع حي الميدان .. فبصق حليم ملكة ولعن وشتم وصاح بصوت اجش : راح (الابلق) ووقف يتتبعه بنظراته حتى بعد ، وما زال يبعد حتى غاب اثره عند الافق ..

وترك حليم ملكة السرب طائراً ، عسى ان يراه الابلق الشارد عن بعد فيعود اليه ، وانتظر طويلاً يقلب طرفه في انحاء السماء الصافية ، وليس هناك ما يبعث على الأمل ..

وتعب السرب ، وقد طار طويلاً فعاد يحط على سطح مطاره . وعاد حليم ملكة لنفسه بعد ان شرد عنها ، فوجد انه قد تأخر كثيراً عن عمله في

القيادة فراعه ذلك وهو يعرف شدة الرقابة التي فرضت اخيراً على المتأخرين او المتخلفين ، واسرع يعيد طيوره لمحابسها ، بعد ان أطعمها وهو لا يعرف كيف اطعمها ، ونزل الى الطريق يهرول في مشيته وهـــو يعلم ان الشقة بعيدة بين داره ومقر عمله ، ولكنه ما استطاع وهو يسير في طريقه مهرولاً الا ان يعود من حين لآخر ، ليقلب نظره في انحاء السماء ، عساه يرى الابلق عائداً الى جهة الصالحية . واستمر في سيره ، مسرع الخطى مشتت البال ، حتى وصل القيادة وهو يلهث تعباً .

وتنقضي ظهيرة ذلك اليوم ، ويوشك أن يحل وقت العصر ، فاذا باصوات صياح وعويل تخرج من طرف الحي ، فيسمعها المارة في طريق سكة الصالحية ، فيتساءلون أو يسألون جلية أمرها ، ويتجمع نفر من اولاد بيت الأفندي ، ومعهم بعض صبيان الحارة ، ويطل عليهم رسلان أبو عمر ، وقد عاد من المدينة مسرعاً وهو مضطرب الوجه ممتقع اللون . ويتحلقون من حوله فيسألونه فيجيبهم بصوت خافت ، وقد ضرب بيده على خده : يا حسرتي على حليم ملكة لقد شنقوه ...

ويسأل بعضهم مضطرباً وجلا : و كيف كان ذلك ..؟

لقد وقع هذا في يوم من أيام الحرب العالمية الاولى التي ازداد في خلالها بين افراد الجيش العثماني في دمشق ، عدد الفارين من الجندية من ابناء البلاد ، أو المتخلفين عن الدعوة الى النفير العام (السفر برلك) . وكانت القيادة العثمانية اذ ذاك احوج ما تكون لتجنيد أو تسخير اكبر عدد ممكن من السوريين بعد أن قرر جمال باشا ، القائد السفاح ، ان يعد العدة لحملة الهجوم على قناة السويس ، فكانت الدوريات المسلحة التي تكاد ، وهي تجوب انحاء المدينة وضواحيها ، لا تجد في طريقها أو في جهة من الاماكن العامة والاسواق احداً الا وتسأله أن

يقدم لها وثيقة تبرر عدم التحاقه بالجيش ، فاذا لم يستطع ذلك اوقفته ثم عمدت بعد حين ، لالحاقه باحدى القطعات او المراكز المعدة لتشغيل الناس اوتسخيرهم في عمل من الاعمـــال . وكان ممن اشتهر بطلب الوثيقة من المارين في الطرقات والاسواق ضابط تركي لقبوه بأبي لبادة ، كما يروح يذكر ذلك الكثيرون من اهالي دمشق ، وكان يلبس قبّعة عالية من اللباد ، تشبه قبعةالدراويش . فكان يغشى الاحياء والحارات والممرات ووراءه طائفة من الجنود الاتراك ، يلاحقون الفارين المتخلفين عن اعمالهم في الجيش العثماني . ولكن هذا كله لم يكن يحد من عدد الفارين المتخلفين عن دعوة الجيش من ابناء دمشق ، الذين كانوا يضمرون في نفوسهم البغضاء للجيش العثماني ، ويأبون على أنفسهم الالتحـــاق بقطعاته ، الا اذا اكرهوا على ذلك اكراهاً شديداً .

ورأت القيادة ، أن الأمر أصبح يحتاج لشيء من الارهاب والقسوة ، فعمدت الى تدبير ، قيل ان الضابط صاحب الوثيقة ابا لبادة ومعه اليوزباشي ضابط الموقع كانا اقترحاه ووافقت عليه القيادة العثمانية ، وهو انه كلما قبض على عشرة رجال من الفارين من الجيش التركي أو المتخلفين عن اعمالهم فيه ، تجمع اسماؤهم ويكتب كل واحد منها على بطاقة ، ثم تسحب القرعة ، فمن اصابته يشنق لفوره .

وجاء يوم قبضوا فيه على عدد من الفارين لم يبلغ عددهم العشرة وبحثوا في صباح اليوم الثاني عن الفارين او المتخلفين عن اعمالهم في خدمة الجيش العثماني ، وكان حليم ملكة سيء الحظ قد تخلف عن عمله في ذلك اليوم مدة ساعتين او اكثر بسبب ضياع الطير الابلق نوشي به حاسدوه من زملائه ، وما كان اكثرهم في القيادة العثمانية في دمشق ، فزعموا انه تخلف كما هي عادته . وكان

رئيسه اليوزباشي متغيباً عن مكتبه في ذلك الوقت فلم يكن هنالك من يدافع عنه او ينفي ما ألصق به من تهمة غريبة ، فكتب اسمه فوراً في قائمة العشرة السوداء ، وسُحبت القرعة فاذا هي تقع عليه ، وبحثوا عنه واذا بهم يجدونه في طريقه مهرولاً فقبضوا عليه .

وجاء بعد قليل رئيسه اليوزباشي حسني بك الى مكتبه متأخراً ، فلم يجد على منضدته شيئاً من زهر او ورد كما اعتاد، فصاح يطلب حليم ملكة فلم يجبه احد ، وضرب الجرس الذي يتصل بغرفة الحراس المرافقين فجاء الاونباشي ، ووقف متهيباً فسأله حسني بك : (حـــليم ملكة نوده ؟) اين حليم ملكة ؟ فأجابه الاونباشي وهو مـــا برح في انتصاب قامته : (آصديلر افندم) شنقوه ياسيدي ، قال اليوزباشي (ولان نصل آصديلر ؟) . الويل لك كيف شنقوه ؟ وعندئذ تقدم الاونباشي من النافذة المطلة على الساحة فازاح عنها الستائر واقترب حسني بك من النافذة فرأى حليم ملكة معلقاً في الفضاء على اعواد المشنقة والناس من حوله يتفرجون عليه .

لقد صدر قرار القيادة العثمانية في دمشق في اليوم الثاني بابطال هـــذا التدبير الشاذ الذي كان في جملة ضحاياه ، حليم ملكة . وروى بعضهم ان الذي سعى لابطال هذا التدبير فورا ، هـو اليوزباشي حسني بك الذي احزنه وآلمه كثيرا ما صار اليه من طالع سيء آذنه الطيب الوفي .

لقد بيعت بعد ايام طيور حليم ملكة في حي سكة الصالحية لان ذويه كانوا بحاجة الى ثمنها ، وكان بين هـــذه الطيور الابلق (الحارق) الذي عاد في امسية ذلك اليوم نفسه فحط على سطح حليم ملكة في الصالحية بعد ان قضى حيناً

من اليوم على سطح صاحبه القديم في حي الميدان ، فلم يجد من يطعمه شيئاً من الذرة او يستلهيه بطائرة .

لقد اشترى الغاوون من اصحاب الاسراب الطائرة بحي السكة ومـــا جاوره ، طيور حليم ملكة ، باثمان لا بأس بها ، رغم ضيق ايام الحرب ، ولم يبق منها في آخر اليوم ، سوى الابلق (الخارق) فقد اعتبروه طيراً مشؤوماً ، لم يقدم على شرائه احد .



اللحن القديم

شعر مصطفى جمال الدين

— النجف

الى التي وددت ان تكون لي كل شيء
إلا ابنتي . . اهدي هذا اللحن . .



شاعرنا ، يتمثل لحناً قديماً ، من الحان عبد الوهاب ، تجدد شبابه صيغة جديدة من فيروز – كلحن ياجارة الوادي . والقصيدة ، نداء الى (فيروزته)

قربي روحَكِ الرقيقة مني   ودعيني انسى مصارعَ فني
أنا ياحلوتي شجيٌ من الانغـــام هيان لم يتـَــعْ بأذن
عزفته (قيثـــارة) لم تَزجه هديراً فعـــاد أسوأ لحن
ولناهى اليكِ من بعد (عشرين) خليّـــاً مما يروق المغنّي
فاعيدي (توزيعَه) ... واسكبي روحَكِ فيه...ثم اعزفيه وغني
تجدي ميّت المواويل يصحو   بين عينيكِ ياضحايَ وعيني
فترفّ المنى على بأس قلبي   ويضج السنى على ليل جفني
ثم تجري الحيـــاة في قصب الراعي فينسى قطيعه .. ويغني

• • •

ابه (فيروزتي)خذي(جارةالوادي)..خذيني..ذودي رؤى الموت عني
جددي النار في دمي .. علميني   كيف اقوى على لظاها ..وأفني
قربيني لاتجعلي اليأس يطوي   شوكَهُ بين جانحيـــك وبيني
ابنتي انت ؟؟
لا .. خناجر اوتاريَ غصّت بما تريدين مـــني
لستُ أقوى على نشيج فؤادٍ   حزّ في خصبه جفافُ التبنيّ

• • •

لاتثوري.. هيّا احرقيني وصوغي من رمادي أباً كشكلي.. كلوني
أريحياً .. سمح الطباع . رضيّ النفس .. خلواً من عقدةٍ أو تجنّ
غير ان (البنت) التي كتبتْ لي: أنها ، بعد يأسها ، وجدتني !!
سوف تلقى بهيكلي كلّ شيء   يمتع ، غير أنهـــا لم تجدني...

ما انا ياحبيبتي غير طينٍ قد تسامى بفضل حبٍ وفن
وانا بالهوى صعدتُ الى مجدي وبالحب قد بنيتُ .. وأبني ..

. . .

ابنتي انت ؟! لا . حناجر اوتاري غصّتْ بما تريدين مني
لستِ بنتي .. هيهات انتِ اللظى الجاحم . انتِ السهادُ يأكل جفني
انتِ .. يا ألف موجاً بهمومٍ فارقتني لكنها لم تخنّي
انتِ روحي الظمأى أطلّت في الغيب على واحة الربيع الأغن
انت عمري . انت انتعاشة كأسي . انت شعري .. انت التماعة ذهني
انت نفس اللحن الذي كنتُهُ بالأمس هيمان ..

.. عاد أروع لحن



بدوي

شعر صابر فلحوط



توضع الشمس وجنتيه وتُلقي
جمة الحسن سمرةً في جبينه
وتهبُّ الرياح هوجاً غضاباً
ثم تخبو بوثبةٍ من يمينه
صامدٌ للنوائب السود تترى
وظلامُ الحياة ملءُ جفونه
وبرودُ البلاد شرقاً وغرباً
مطفئاً في الرمال نارَ شجونه
بيتُه فوقَ ظهرِه ليس يهدا
في مطاوي سهولِه وحزونِه
كلما شالَ حملَه أقعدته
نائباتٌ تهدُّ عزمَ متونِه
وكأن الزمانَ جاء مديناً
يتقاضاه سالفاتِ ديونِه
خدّدته الخطوطُ حتى تراءى
للخليينَ تاجراً بجنونِه

. . .

هو في مقلة الوجود شعاعٌ
خالدٌ رغمَ طارقِ الحدثانِ
زرعته الحياة في قلبها الفاني
وعوداً بجنونةَ العنفوانِ
يتحدّى الهموم بالبسمة الحمراءِ
تحلو ، وباخضرار الأماني
قلبه مسرح الحياة عليه
أضلعُ الله مشفقاتٌ حوانِ

هو في قبضـــةِ الرمالِ حسامٌ
مرهفُ الحدِ موعبُ اللمعانِ
ما استطاب الحياةَ غيرَ أمانٍ
وطيوفٍ سحريةٍ وأغانِ
يفرشُ الحبُ في يديه دروباً
عابقاتٍ بالعطرِ بالأقحوانِ
عمرُهُ بســـمةُ التفاؤلِ تبدو
كارتعاش الصباحِ في الأفنانِ

• • •

قصرهُ شقةٌ من الوبرِ شُدتْ
بحبـــالٍ متينةِ الأوتادِ
تسجدُ الروحُ دونها في خشوعٍ
كضعيفٍ في قبضةِ الجلادِ
وترشُ النسائمُ البكرُ فيهـــا
اغنيـــاتٍ من وشوشاتِ الوهادِ
تستحمُ الظلالُ فيهـــا ويغفو
الصيفُ في جنحها عميقَ الرقادِ
أين منها مدينةٌ عمرتهـــا
عابساتُ القلوبِ بالاحقادِ ؟
يطفح الموتُ والعفونةُ فيهـــا
كقبورٍ معمورةٍ من رمـــادِ
ويموتُ الحياءُ في الأوجهِ الصفرِ
ويرمي قلوبَهـــا بسوادِ

أين من طهرِ ربوةٍ حلّ فيها
خيرُ ما في مدينتي من نوادي ؟

. . .

كنزهُ الكنزُ قبضةٌ من شياهٍ
الصقَ الجوع جلدَها بالعظامِ
وجمالٌ - جوبُ الجلود - عجافٌ
منهكاتُ الظهورِ والأسنامِ
واذا رنّت الربابةُ يحيا
الفَ عرسٍ معطرِ الأحلام
وتشبُّ النيرانُ فالقهوةُ السمراءُ
كأسٌ ياطيبها من مدام!
صاوها رمز السخاء فكانت
كالموازين للنفوس الكرام
صوه نظرةٌ الى الغدِ تمحو
بضياها الشفيفِ موجَ الظلامِ
فرشت رجلهُ على الرملِ لكنْ
ناطحت هامُهُ جبينَ الغمامِ
فهو شبابةُ الوجود تغني
بصداها مواكبَ الأعوامِ
وهو بحرُ الحياة فاضت سواقيه
عطاءً على الدروبِ الظوامي
هو من روضةِ الخلودِ غصونٌ
وكؤوسٌ من الهوى والغرامَ

سلسلة

التراث القديم

تصدر عن وزارة الثقافة والارشاد القومي ، سلسلة التراث القديم ، لنشر الكتب المخطوطة التي لم يسبق نشرها ، والتي تكشف عن غنى حضارتنا العربية في مختلف الميادين ، وذلك بعد تحقيق هذه المخطوطات تحقيقاً علمياً وافياً .

يطبع في هذه السلسلة الجزء الرابع من مخطوطة (مجمع الآداب في معجم الألقاب) لعبد الرزاق بن الفوطي . قام بتحقيق هذا الجزء العلامة المعروف الدكتور مصطفى جواد . صدرت حتى الآن الأقسام الثلاثة الأولى من هذا الجزء الرابع كل منها يجاوز ستمائة صفحة . ويباع في جميع المكتبات المشهورة . ثمن القسم الواحد ٦٠٠ قرش سوري .

اعتمد الفوطي ألقاب الرجال ورتبها ترتيباً معجمياً وقد جعل فيه اسم العلم مقسماً الى ستة أقسام : أولها اللقب وثانيها الكنية والثالث للاسم والرابع لاسم الأب والخامس للنسبة والسادس لاختصاص العلم المترجم بفن أو بمهنة . ثم يترجم للعلم ترجمة مكثفة لاتعدو أحياناً ثلاثة أو أربعة أسطر يوفي بها الغرض من التعريف بالعلم .

وتضم هذه التراجم أعلام الأدب والفكر في التاريخ العربي في عصر ازدهار النهضة العربية حتى أواخر القرن السابع الهجري .

الفنون

الكتاب والموضوعات

- نشأة الخط العربي وتطوره

بقلم احسان النمر

نابلس — الاردن

- الممثل وفنه

للكاتب الروماني جورج فراكا

ترجمة الاب اميل مرقدة

نشأة الخط العربي وتطوره

بقلم احسان النمر
نابلس — الاردن

(نشأة الخطوط في العالم ، نشأة الخط العربي ، رأي الاجانب ، رأي العرب ، الخط الكوفي ، الخط الفني ، الخط الاصولي ، الزخرفة بالخط العربي «المعروفة بالارابسك» ، خط المصحف ورأي ابن خلدون ، خط الحافظ عثمان ، انواع الخط الاصولي وتطوره ، جهود العثمانيين في تنويع الخط الى عادي وديواني) .

اثر الخط في التاريخ

يعتبر الخط مطلع التاريخ البشري ، وما قبل ظهوره يعتبر مجاهل التاريخ او ماقبل التاريخ ، فالخط هو التاريخ لكل امة .

اصل الخط

اما كيف ظهر الخط ، فهذا يمكن فهمه عيانا بمراقبة اي امي يعول على ذكائه في قيد تعامله مع الناس ، فتجده يستعمل اشارات ورموزاً بقسمة ذكائه وفهمه يصطلح عليها ، وهكذا كان كل قوم في ابديتهم يصطلحون على صور واشكال يضمنونها الالفاظ ، وبسرعة الكاتب تحولت الى رموز ومنها تحولت الى حروف الهجاء ومن حروف الهجاء تكونت الكلمات واللغة باكلها .

تباين الخطوط

ولما كانت اذواق الامم والاقوام متباينة ، فقد تباينت الخطوط والاساليب ، وقداخذت عن بعضها فاستقر الخط على الاصول الحاضرة .

اساليب الاميين

لقد اطلعت على اساليب بعض الاميين فكانت كذلك ، ولما زرت بلدة بيت رأس في شمال مدينة اربد ، وجدت خطوطا منقوشة على الحائط الخارجي للمعبد ثم فهمت انها للبدو حيث يسجلون ودائعهم ، ووجدت ان هذه الخطوط تشبه خطوط النبطيين في ام الجمال وغيرها من بادية الاردن . وهي تشبه ايضا خطوط اطلال تمنة في مملكة حضر موت التي نشرها ويندل فيليبس في كتابه كنوز مدينة بالقيس .

اساس الخطوط العالمية

من المعلوم المقرر ان اساس الخطوط العالمية ، المسماري في بلاد مابين النهرين والهيروغليفي في مصر وعنها اخذت خطوط العالم المعروف باستثناء الصين . وكما اختلفت الخطوط اختلفت الاساليب : فبعضها عمودي كالصين وما خلاه افقي ؛ وبعضها يبدأ من اليمين الى اليسار وبعضه يبدأ بالعكس من اليسار الى اليمين ، وبعضها يتخذ صفة دوران الثور اي فدان البقر في الحراث اي من اليمين الى اليسار وبالعكس .

الخط العربي الجنوبي

ظهر من اكتشافات « المؤسسة الاميركية لدراسة حياة الانسان » ـ والتي تمت في المدن

الاثرية في جنوب شبه الجزيرة العربية اي في تمنة ومأرب — أنه كان هنالك خط عربي اقرب مايكون في ترتيبه الى ترتيب الخط الحبشي ، وان اتجاه الكتابة كان من اليسار الى اليمين ثم من اليمين الى اليسار وان الابجدية هذه لم تكتب فيها حروف علة وانهـا اقرب ماتكون الى الفينيقية .

اصول الخط العربي الحـالي

وعلى أية حال فهذه الابجدية وهذا الخط قد تطور الى خطنا الحاضر الذي يرى فيه العرب والأجانب رأيين يختلفان في الفروع ويتفقان على الأصل وهو المصري ، فبكما قرر أصحاب الوسيط أن الاجانب يرون ان الخط العربي المنحدر الينا هو من الكوفي والحجازي وان الكوفي أخذ عن السطر نجيلي فالسرياني فالآرامي فالفينيقي وهذا اخذ عن المصري، وأما الحجازي فانه اخذ عن الحيري الانباري وهذا اخذ عن النبطي وهذا اخذ عن الآرامي ثم الفينيقي فالمصري ، الا انه بعد التنقيب في طور سينا عدلوا رأيهم فاعتبروا خط طور سينا أصلا اخذ عنـه الساميون في الجنوب والشمال وعن الجنوب اخذ الحميريون والسبئيون والثموديون والاحباش والهنود، وعن الثاني أي الكنعاني والفينيقي أخـذ الاغريق واللاتين والنبط والسريان والتدمريون والحيريون أو العرب القدامى، أما تسلسل الخط العربي على رأي رواة العرب :فالكوفي أخذ عن الحجازي ،وهذا اخذ عن الحيري والانباري ،وهذا اخذ عن الكندي والنبطي ،وهذا اخذ عن الصفوي الثمودي الحميري ،وهذا أخذ عن المسند وهذا اخذ عن الفينيقي المأخوذ عن المصري.

نهضة الخط العربي

كان الخط العربي قاصراً على عدد معين من التجار والخواص في كل بلد - لاسيما الحيرة ومكة ، لتعاملهم بالتجارة . ولما وقع نخبة من المكيين في الاسر يوم بدر ، كلف الرسول (ص) من عجزوا عن دفع الفداء ان يعلموا عشرة من صبيان المدينة الخط وحض عليه سائر اصحابه واصبح في مدينة الرسول نوع من الخط يلائم كتابة القرآن الكريم ، ولما فتحت الاقطـار انتشر الخط الحجازي مع الفتوح وما زال الخط العربي ينتشر مع الاسلام واللغة العربية حتى عم العالم الاسلامي أي اكثر العالم المعمور .

انواع الخط العربي

كان الخط العربي في اوله بدائيـاً جامداً نكاد لانفهمه اليوم الا بصعوبة ، ثم وضعت له النقط والشكل فتزخرف زخرفة لفتت اليه الانظار واستخدم في زخرفة المباني والاقمشة والخشب، فكان اعظم خط زخرفي في العالم باستثناء الخط الصيني الذي ظل قاصراً على بلاده .

وقد جرى الخط العربي على اسلوبين : زخرفي اشتهر بالكوفي وهو مطلق غير مقيد بقواعد ، واصولي مقيد بقواعد ولهذا اصبح من الضروري بحث كل قسم على حدة .

الخط العربي الزخرفي

في الفتح الاسلامي نزل في الكوفة نخبة ممن يحسنون الخط العربي فعنوا بالخط ونوعوه فابتكروا انواعاً عرفت باسم الكوفة وقد عمت العالم الاسلامي زخرفة المباني حتى خلد اسم الكوفة التي بالرغم من خرابها وقصر مدة عمرانها ظلت تعرف به وقد دام استعماله الى حدود الالف سنة ثم توقف وظهر المدور الذي حل محله ، وقد اثبت الخط الكوفي بان الخط العربي افضل خطوط العالم للزخرفة .

قال الدكتور زكي محمد حسن : « ليس ثمة فن استخدام الخط في الزخرفة بقدرما استخدمه الفن الاسلامي . ولاغرو ، فانا اذا استثنينا الكتابة الصينية — وهي نوع قائم بذاته — لانجد خطاً اوفق للزخرفة من الخط العربي ، فحروفه اصلح من غيرها لهذا الغرض بما فيها من استقامة وانبساط وتقوس ، والخطوط العمودية والافقية في هذه الحروف يسهل وصل بعضها ببعض ، كما يسهل وصلها بالرسوم الزخرفية الاخرى وصلا يجلى فيه الجمال والاتزان والابداع وقد اتيح له بعد ذلك ان يصل في اربعة قرون الى جمال زخرفي لم يصل اليه خط آخر في تاريخ الانسانية قاطبة » .

وقال الدكتور غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب : « للخط العربي شأن كبير في الزخرفة ، ولاغرو فهو ذو انسجام عجيب مع النقوش العربية ، ولم يستعمل في الزخرفة — حتى القرن التاسع من الميلاد — غير الخط الكوفي ومشتقاته كالقرمطي والكوفي القائم الزوايا » .

وقد كان الخط العربي الزخرفي موضع اعجاب العالم ، حتى اطلق عليه الاوربيون كلمة « الارابسك » . وقد بلغ من اعجابهم به ان يقتبسوه دون فهم معناه ، فوقعوا بتناقض غريب . قال الدكتور غوستاف لوبون : « وقد بلغ الخط العربي من الصلاح للزينة ما جعل رجال الفن من النصارى في القرون الوسطى وفي عصر النهضة يكثرون من استنساخ ما كان يقع تحت ايديهم من قطع الكتابات العربية على المباني المسيحية تزييناً لها سائرين في ذلك مع الهوى ، وقد شاهد السيد لونقبريه والسيد لافوا وغيرهما الشيء الكثير منه في ايطاليا ، ومما شاهده السيد لافوا في مكان الامتعة من كتدرائية ميلانو باب مبني على طراز رسم القرجارين يحيط به افريز حجري مؤلف من كلمة عربية مكررة عدة مرات ، وكتابة عربية حول رأس السيح فوق ابواب القديس بطرس والقديس بولس . ومن دواعي اسفي عدم ترجمة هذا الكاتب لهذه

الكتابات .

لقد كان منع رسم الصور البشرية اكبر حامل على عناية المسلمين برسم مالا روح فيه ، ولما كان العرب ينفرون من الفراغ فانهم كانوا يملئون الفراغ بالآيات القرآنية المكررة وغيرها من المخطوط .

التفنن بالخط الكوفي

لقد تفننوا بالخط الكوفي تفننا ادهش العالم ، فقد بلغ نحو الخمسين نوعاً ، فنه المضلع الهندسي الذي يكون المربعات في موضع العين والغين والفاء والقاف والميم والهاء الخ ... ، النوع الثاني ـ وهو الاجمل ـ النوع المشجر بانهاءقوائم الخط ـ الالفات واللامات ـ باغصان شجرية مورقة تجعل ارض اللوحة او الشاهدة كالحديقة ، وثمة نوع ثالث وهو الكوفي الضفر اي المعقود كالضفائر .

كما اوجدوا نوعاً من الخط يستعمل في الاواني والنسيج بحيث يلتوي على بعضه مع بقاء رؤوس لاماته والفاته مقطوطة كالاقلام .

الخط المدور الطغرائي — ثم الديواني والفارسي :

وهنالك نوع زخرفي منفصل عن الخط الكوفي ، وهو المدور على بعضه في نهايته على صورة الطير برأسه وذنبه والذي تطور الى الطغراء التي ظهرت في عهد السلجوقيين ثم تفنن بها وبهذا الخط كتاب العهد العثماني ، تكتب في اعلى الرسومات (الفرمانات) وقد دوروا الخط في آخر كل سطر ليلحق بما قبله . وقد اطلقوا عليه اسم الديواني والفارسي ، فكان لايعرفه الا اشخاص مختصون ، وقد خالفوا القواعد خلافا متعبا حتى انهم وصلوا حروف الانفصال وقصروا حروف الطول لاسيا اللام ـ فجعلوها بمقدار سن النون والباء الخ .. حتى انه وقع بيدي كتاب من هذا النوع مرسل من امين سر والي دمشق الى احد اجدادنا توصية لقيم شيخ العماد في نابلس واحتجت الى عرض هذا الكتاب على بضعة من الشيوخ العالمين بهذه الخطوط كي يحلوا الغازه فلم يتمكنوا من اتمامه الا بالتقدير فاصبحت كتابة لغزية تصلح للمكاتبات السرية .

التفنن بالخط الاصولي وتحسينه

كان الخط الاصولي اي الجاري على قواعد اصولية خطا بدائيا يصعب علينا اليوم فهمه كخط ـ كتب الرسول (ص) الى الملوك وخط مصاحف عثمان رضي الله عنه ـ ثم وضع ابو الاسود الدؤلي النقط ، ثم ان الخليل بن احمد وضع الشكل فهان أمره . ثم جرى تحسين الحروف حسب تقرير الوسيط في آخر الدولة الاموية ، وذلك ان قطبة المحرر استنبط من الخط الكوفي

والحجازي خطا هو اساس الخط الذي نستعمله الآن ،فقد اوجدوا القلم الجليل الذي يكتب به على المباني،ثم قلم الطومار وهو اصغر انواعه وعرض قطته ٢٤ شعرة من شعر ذنب البرذون ، ثم استمر التحسين في صدر الدولة العباسية . ثم عمل لذلك ابراهيم الشجري واخوه يوسف من كتاب اواخر القرن الثاني الهجري فاوجد ابراهيم من الجليل قلم الثلثين وعرض قطته ١٦ شعرة وقلم الثلث وعرض قطته ٨ شعرات ، واوجد يوسف القلم الرياسي وهو قلم التوقيع .

وظهر الاحول المحرر من صنائع البرامكة،فأوجد قلم النصف وهو ١٢ شعرة ،وخفيف الثلث،والمسلسل وهو المشبك الحروف ،وغبار الحلبة الذي شبه بغبار خلية النحل ويكتب به في بطائق الحمام الزاجل ،ثم الرقعي او الرقاع وهو خط المكاتبات ، هذه اشهر الخطوط وقد تولد منها نحو العشرين خطا لاغراض خاصة . وقد اعتبر الخطاطون طول الالف واللام معيارا لارتفاع بقية الحروف ،وقالوا الخط الحسن ماطالت الفه ولامه وبهما تعتبر النسبة .

وقرر اصحاب الوسيط ايضا انه عن الاحول اخذ مهندس الخط العربي الاعظم وهو الوزير ابو علي محمد بن مقلة واخوه عبد الله الحسن ،وهما اللذان على ايديهما تمت هندسة خط النسخ والجليل وفروعه على الاشكال التي نعرفها الآن ،وقد أتما العمل الذي بدأ به قطبه فهندسا الحروف وقدرا مقاييسها وابعادها واحكما ضبطها وقررا قواعدها ،وعن الوزير بن مقلة اخذ محمد بن اسد القارىء وابن البواب ،وهذا الذي اكمل قواعد الخط واخترع الاقلام العديدة واليه انتهت غاية ابداع فن الخط الاحولي وقد تابعه ياقوت الملكي وياقوت المستعصي ، وقد ظل هذا التحسين قاصرا على المشرق ولم يأخذ به المغرب فظل الخط المغربي قاصرا على طريقة الخط الحجازي مع شيء من التعديل البسيط .

الخطاطون العثمانيون

لقد جاء في الوسيط(١) ايضا : « ومازال الخط يجري في مضماره حتى قبض على عنانه مكتبو الترك العثمانيين فحولوا بعض انواعه وخاصة قلم الرقاع (الرقعة) الى مانعرفه ، وارتقوا بالمسلسل الى الغاية وولدوا منه خط العلامة السلطانية (الهمايوني) وابدعوا في بقيـــة الانواع بما جعل العالم يعترف لهم بالسبق . ومن اشهرهم الشيخ حمد الله الاماسي امام الخطاطين العثمانيين وجلال الدين والحافظ عثمان » ثم ذكر الوسيط في ترجمة الحافظ عثمان مايلي : «ولما ذاع صيته اختير معلم خط للسلطان مصطفى خان الثاني والسلطان احمد خان الثاني سنة ١١٠٦ هـ. فنال بذلك حظوة رفيعة ومنزلة سنية لم يقابلها بغير القناعة والزهد والتواضع والاخلاص لتعليم تلاميذه

(١) الوسيط في آداب اللغة ظهر في النهضة الاخيرة .

ولو على قارعة الطريق . وكان يخصص يوم الاحد لتعليم الخط للفقراء بالمجان ، ويوم الاربعاء لتعليم الاغنياء . والحافظ عثمان جليل الفضل على الخط العربي بما كتبه من نسخ المصاحف التي بلغت خمسة وعشرين مصحفا عدا مقدارا عظيم جدا من الرقاع والالواح واجزاء القرآن ودلائل الخيرات اذ نقل بعض هذه بالتصوير الشمسي فذاع في الاقطار الاسلامية وطبع منه مئات الالوف وما كتبها ما لايحصى من الملبين والمكتبيين . ومن هذه المصاحف مصحف حفظ بجامع اياصوفيا وبخزانة جامع نور عثمان ، وبخزانة حضرة الفضال نور الدين بك مصطفى بشارع درب الجماميز بالقاهرة جملة رقاع من خطه .

وجاء في تاريخ الحضارة الاسلامية لفاسيلي بارتولو الروسي : « ولاينبغي ان يظن ان العالم الاسلامي قد مني بعد القرن التاسع الهجري بالخطاطوانه لم يستطع ان يقدم للحضارة شيئا جديدا ، فتركيا لم تكتف بشهرتها العسكرية في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين بل صارت استانبول احد مراكز الحضارة الكبرى للعالم الاسلامي . فهي تأتي من جهة كثرة المخطوطات المحفوظة في مكتباتها بعد لندن ولينينغراد » .

وقال المؤرخ العثماني احسان شريف ماترجمته : « ان امام الخطاطين العثمانيين هو الشيخ عبد الله الاماسي وهو من رجال السلطان بايزيد الثاني وله قطع مخطوطات كثيرة دامت الى عهد قريب ، ثم حسام الدين كاتب اوقاف عهد السلطان محمد الفاتح الذي اوجد خط السياقة ، ثم ظهر الخطاط نصوح الذي ابتكر الخط الديواني مستقلا ودون سابق تدرج او تقليد ، وكذا من ائمة الخطاطين العثمانيين الذين ابدعوا في الخط الديواني شفيق بك ، وقد ظهر من الخطاطين بعض السلاطين العثمانيين كالسلطان محمود العادل والسلطان عبد العزيز » .

وقال المؤرخ العثماني الكبير الاستاذ احمد رفيق ماترجمته : « لقد صار العثمانيين مراق كبير بالخط الحسن (١) فانتجوا خطاطين كباراً في خطوط الثلث والنسخ والتعليق ، وكان للخطاطين منزلة كبيرة فكان السلاطين والوزراء وكبار رجال الدولة والاثرياء يكلفونهم

---

(١) من المؤسف حقاً ان ينقلب الاتراك فيكرهوا الخط العربي الجليل الذي بذلوا له هذه المجهودات والذي ساروا به شوطاً كبيراً بعد توقف حتى اصبح من مفاخرهم ، فقد ارادوا التقرب الى الغربيين لمجرد توافق لفظ بعض الحروف مع الحروف اللاتينية . ومن المؤسف حقاً ان يوجد في البلاد العربية من يدعون الى تقليد الاتراك وان يبدل بالحرف العربي حرف لاتيني ، الذين تصدى لهم بعض جهابذة الاقلام فاعلموهم ان هذا الامر ان جاز على الترك الذين لاتراث ادبي لهم فمن المحال ان ينطبق على العرب وهم اثرى أمم العالم بالتراث الديني والادبي والعلمي ولاسيما القرآن الكريم الذي لايكتب بغير الحرف العربي .

بكتابة المصاحف والتأريخ والقطع الديوانية ويغدرون لهم جهودهم ويغدقون عليهم العطاء، وقد تفننوا بزركشة الصحف ونقاط الوقف والاشـارات بالالوان المتعددة والتذهيب الذي تقدم كثيراً ».

خطوط المصاحف بين التقدم والرجعية

مما مضى يتبين ان مصاحف الحافظ عثمان الثاني ، اضحت من اجل مايفتخر به المسلمون وبه تقدمت خطوط المصاحف تقدماً باهراً اذ يشق على الطالب ان يقرأ خطوط المصاحف القديمة التي رجعت اليها الحكومة المصرية في عهود الحماية وكان من رجالها حفني ناصف ظناً منهم ان في هذا محافظة على شيء مقدس ، الامر الذي غاه بحماسة العلامة القاضي ابن خلدون في مقدمته حيث قال : « وانظر ماوقع لاجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في الاجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند اهلها ، ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركا بما رسمه اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخير الخلق من بعده المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه كما يقتفي لهذا العهد خط ولي او عالم تبركا ويتبع رسمه خطأ أو صوابا واين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه فاتبع ذلك واثبت رسماً ونبه العلماء بالرسم على مواضعه . ولا تلتفت في ذلك الى مايزعمه بعض المغفلين من انهم كانوا محكمين لصناعة الخط وان مايتخيـل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يتخيل بل لكلهاوجه . ويقولون في مثل زيادة الألف في « لا أذبحنـه » انه تنبيه على ان الذبح لم يقع وامثال ذلك تنزيهاً للصحابة عن توهم النقص في قلة اجادة الخط وحسبوا ان الخط كال فنزهوهم عن نقصه ونسبوا اليهم الكمال باجادته وطلبوا تعليل ماخالف الاجادة من رسمه وذلك ليس بصحيح ، واعلم ان الخط ليس بكمال في حقهم اذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية كما رأيته مرده الكمال في الصنائع . وليس بكمال مطلق اذ لايعود نقصه على الذات في الدين ولا في الخلال وانمـا يعود على اسباب المعاش وبحسب العمران والتعاون عليه لاجـل دلالته على مافي النفوس . وقد كان صلى الله عليه وسلم اميا وكان ذلك كمالا في حقه بالنسبة الى مقامه لشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية التي هي اسباب المعاش والعمران كلها ،وليست الامية كمالا في حقنا نحن اذ هو منقطع الى ربه ونحن متعاونون على الحياة الدنيا شأن الصنائع كلها حتى العلوم الاصطلاحية فان الكمال في حقه هو تنزهه عنها جملة بخلافنا . »

على ان المدارس اصبحت تعطي الطلاب اجزاء من القرآن بخط عادي الا انهم بعد ان يتقدموا ويقرأوا من الصحف يجدون صعوبة فمن واجب المعلمين تذليل هذه الصعوبة في الخط كتابة نحو « الصلوت » عن « الصلوات » و « الملئكة » عن « الملائكة » الى غير ذلك مما يسهل على التلميذ قراءة خط المصحف والله يهدي السبيل .

الممثل وفنه

للكاتب الروماني جورج فراكا

George Vraca

ترجمة الأب اميل مرقدة

الوهبة شعلة حية ، انها القوة الاكثر قدرة التي تقود الفنان نحو الابداع في فنه ، وبفقدانها يفتقد الفن الأصيل ركيزة قوية تدفعه نحو الافضل .

لقد زال المفهوم القديم الذي كان يعتبر الموهبة هبة علوية تمنح حائزها وبصورة آلية إلزامية الابداع ، وتوجب ان يكون مالكها فناناً مبدعاً عظيماً بالفطرة ودون بذل اي جهد ، اذ يكتفي الممثل باكتساب التكنيك المهني والخبرة المسرحية مقتصراً في تنمية

موهبته على الأمور العملية فقط لاحراز التأثيرات المسرحية الاكيدة ، فكل ماكان يهم الممثل هو ان يتعلم الالقاء الصوتي في طبقات متباينة مدروسة والبكاء والضحك حسب مقتضيات الدور وفي اية لحظة بعيداً عن الاحساس الداخلي ، كما كان يهتم بدراسة الحركة المسرحية بما يرافقها من ايماءات وتعابير مناسبة تلاقي لدى الجمهور القبول الحسن ، في حين أهمل حياته الداخلية وثقافته العامة ، وسها عن المفاهيم الاخلاقية ، ونسي صقل روحه ، وانماء مداركه العقلية ، وهكذا اعتمد فن التمثيل في هذه المرحلة على الشكل وجد عند الظاهر دون ان يجتاز هذا الجدار الى البواطن حيث يكمن عالم فسيح الارجاء يبعد كثيراً عن الجمود ولا يعتمد الشكل أساساً ومرتكزاً .

ولا شك بأن الانظمة الاجتماعية والسياسية التي كانت سائدة ساهمت كثيرا في الوقوف عند هذه (المهنية) في الفن . فقد مرت فترة من الزمن اعتبر فيها الممثل عضواً منحطاً في الحياة الاجتماعية مهمته التسرية عن الطبقة الارستقراطية التي يسمح لها ثراؤها وغناهابأن يحضر أفرادها المسرحيات .

وقد دارت الاحاديث الطويلة حول الظروف الصعبة والحياة الذليلة التي يعيشها الفنانون، ولكنها لم تكن تجدي او تؤتي ثمارها ، لانها كانت تنطلق في الاجواء والمجتمعات التي ترتكز على نظام الاستغلال والاستثمار . فكان الأمر يقتصر على الرثاء دون الاهتمام والعناية بتربيـــة الفنان ، والممثل المسرحي بالذات ، تربية ثقافية كافية واخلاقية وافرة وسياسية واعية ، لتتكامل شخصية الممثل ويؤهل بشكل معقول لكي يلعب دوره الأساسي في الحياة العامة للامة اذا ماكان ملتصقاً بالقضايا العامة التصاقاً عضوياً وحيوياً ، غير منعزل عما يجري حوله ، متفتحاً لترجمة الحياة ترجمة صادقة أمينة .

لقد قال بوشكين Pouchkine : **« ان روح العصر تتطلب تبدلات وتغيرات هامة حتى في المسرح الدرامي » .**

وكأنني به يوجه كلامه هذا الى جميع الصور الثورية ، فنحن الآن بأشد الحاجة الى مسرح يساير واقعية الحياة ، مسرح له جذوره العميقة المواكبة لمتطلبات الحياة وحاجاتها ، الأمر الذي يجعل من فن الممثل صرحاً قائماً بذاته له أسسه الثابتة الاكيدة ، وقواعده المتينة التي تنبذ التكنيك الروتيني الآلي ، وتجتاز الجمود الى الابداع الحقيقي . فليس الممثل من أجاد الحرفية أو أثار الضحك لدى المشاهدين أوقام بالحركات المتطلبة بل هو المثقف الذي يدرك ماوراء العمل المسرحي فيبث الحياة والروح في النص ويسبغ على الشخصية من روحه وسجاياه مايغنيها ويجعلها

تلبس لبوس الصدق والواقعية ، فالممثل المبدع هو هذه الشخصية الساهمة في الخلق والتي تلعب دوراً رئيسياً في المجتمع .

ولكي تصل الموهبة — هذه الشعلة الحية التي هي قاعدة كل ابداع فني — الى الكمال يجب دعمها وتغذيتها بأمور كثيرة تتطلب المجهود الضخم المستمر ، فكلما نهــل الممثل من الثقافة واتسعت فروع دراساته ومعارفه ، وازداد تعمقه في فهم الحياة ، ونما ذوقه وحسه الفني ، كان اداؤه أكثر اتقاناً واقرب الى تصوير الواقع .

ولايمكن الاعتراض على هذه الفكرة بالاستشهاد بالعباقرة من الممثلين الذين أبدعوا باداء الادوار الصعبة دون ان تكون لديهم الثقافة المطلوبة ، والمعرفة الواجبــة ، اذ ان هؤلاء قلة لايمكن ان نقيس عليهم ولنجعل منهم قاعدة عامة . وأضيف — وهنا مؤكد — بأنه لو كان واحدهم يمتلك من المعرفة والثقافة ماهو لازم وأكيد لكان أداؤه أكثر روعة ، واعمق ابعاداً ، وأشد روعة وابداعاً .

ولنتصور أحد هؤلاء — مهما بلغت موهبته — وهو يقوم بتمثيل شخصية فاوست Faust دون ان يتوفر لديه الفهــم الكامــل لفلسفة غوته Goethe وما أودعه المؤلف في شخصية « فاوست » من شحنات وانفعالات في مواقف متوترة تتجلى خطورتها في المشهد الذي يبيع فيه نفسه للشيطان ، او لنتصور ممثلاً يتقمص شخصية تاريخية كشخصية ايفان الرهيب او شخصية « بطرس الاكبر » مثلاً وهو لايدرك اهمية الصراع القائم في ذلك العصر بين هاتين الشخصيتين والقوى الرجعية التي تمثلها طبقة الاغنياء . وكذا الحال عندما يريد ممثل ما ان يبرز صورة صادقة لنفسية عالم يقوم باكتشاف علمي يسلبه لبه ، ولكنه يتردد في النتائج التي قد تصدر عن هذا الاكتشاف وتكون وبالاً على الانسانية. تصوروا ممثلاً يتوجب عليه ان يصور هذا التردد وهو لم يتصفح في حياته كتاباً واحداً يمت الى العلم بصلة ، فكيف يلم بالاهمية التي تعالج في مثل هذه المسرحية ؟ ولايقل الأمر سوءاً عنــدما يقوم الممثـل باداء دور السيد Le Cid لكورني Corneille دون ان يفقه شيئاً من مغزى هذه الشخصية أو يعرف شيئــاً عن العصر الذي جرت فيه احداث هذه الدراما مع مايرافقه من تقــاليد تاريخية خاصة . وهو طبعاً لايدري بوجود اسلوب معين صيغ فيه هــذا ، هو الاسلوب الكلاسيكي الفرنسي . كما اننا لانستطيع ان نتصور احدهم وهو يقوم بتمثيل شخصية هملت Hamlet هذه الشخصية الخالدة الدقيقة التي تجمع بين الجنون والحكمة والألم والسخرية والمواربة والصراحة والتردد والاقدام .

كتب ف . ا . لينــين F.I. Lenine ذات مرة الى غوركي Gorki يقول :

« اذا لم تتفهم معنى الافعال لايمكنك ان تفهم الناس الا سطحياً . واذا تعمقت

في معنى فعل إنسان ما ادركت ، لا نفسية الانسان ومعنى صراع هـــذا الانسان وحسب ، بل أهمية الصراع من الوجهة الاجتماعية والسياسية » .

ومما لاريب فيه ان هناك ادواراً لايستطيع الممثل فيها ان يصل الى قمة الابداع الحقيقي مهما كان موهوباً ، ان لم يكن مزوداً بالمعلومات النظرية والثقافية العامة الضرورية . ولا ينفي هذا ان يكون اداء الدور دون المستوى ، رغم كل الامكانيات المتوفرة للممثل ، ولاريب ان مرد ذلك انما يرجع الى ضعف في مؤهلات الممثل الثقافية فتخونه موهبته ويعجز عن حل المشاكل التي تعرض له في صلب التمثيلية . اذ لابد ان يلازم الموهبة والمهارة المهنية عقل يعمل باستمرار يدرك الامور ، ويزن الاعمال ويستنبط المعنى العميق . وهكذا يجب ان تتوفر في شخصية الممثل الى جانب الموهبة والقيادية العقل المفكر المدرك الملم بالافكار العامة والفلسفة وعلم الجمـــال والسياسة والتاريخ ، والروح الشفافة المرقة بالحس المرهف والذوق السليم والشعور الدقيق النامي بالجمال .

فما لاخلاف فيه ان فن الممثل ، هذا الفن المتداخل العجيب الذي يفترض في صاحبـه ان يجمع بين الادوار المختلفة وتقمص الشخصيات المتغايرة ، يتطلب امكانيات عديدة وصفات كثيرة ومكتسبات متنوعة تؤهل حاملها لان يخلق مضمون النص فيهبه الحياة ويبث فيه الحركة بعد ان كان اسطراً جامدة وكلمات سوداء ميتة .

ولسنا نمتدح الممثل او نطالب منه التحميل لان هذا الفن لما يتمتع به من مزايا يوجب على الممثل ان يكون واسع الافق ملما بكل علم وفن حتى يستطيع تقمص الشخصيـات المختلفة في فترات قصيرة يلتزم في كل منها بجانبية خاصة تنبع من البيئة والعصر والفيزيولوجية الخاصة بالشخصية وليس معنى هذا ان نطلب بالمقابل الكثير من الممثل . فمن غير معقول ان يدرس الاستراتيجية من يرغب ان يمثـــل دور نابليون Napoleon ، او ان يتعمق في فن الموسيقا من يسند اليه دور فاغنر Wagner ، او ينهي دراسة الطب من يقوم بدور العالم الدكتور « بابش » ، وكل مايطلب منه هو ان يحصل على ثقافة عامة في نواح مختلفة لتكون لديه القدرة على فهم بعض القضايا الخاصة ليتلاءم مع المشاغل والاحداث والحياة الداخلية لكل شخصية يقوم بتمثيلها .

هنالك امر اساسي بالنسبة للممثل « رجل الفن » هو تهذيب الذوق الفني وصقله . ويكون هذا بتنمية الشعور بالجمال ومشاهدة التمثيليات المختلفة ذات المستوى الرفيع ، والتردد على المتاحف ومعارض الرسم ، والامعان بالتماثيل المشهورة ، ليتأكد لديه تقدير الالوان ، ويتكون عنـــده الميل نحو الحس بالجمال . ولاننسى ما للمطالعة من تأثير كبير في هذه التنمية لاسيا اذا تناولت روائع الادب العالمي .

يجب ان يتضافر الشعور بالجمـــال بصورة منسجمة متحدة مع آراء الممثل بالفن والجمال ، على اعتبـــار ان التذوق الفني هو نتيجـــة بعض المبادىء العقائدية الفنية ونتيجة ادراك قوانين تتعلق ببعض العلوم التي تبحث في الجمـــال وبعض الاسس المرتبطة في الحكم على تأليف أدبي او تقدير لوحة فنية او تذوق ديكور مسرحي . .

وهكذا يجب ان تنضم الخبرة العمليـــة الى المعلومات النظرية . وقد لاتجتمع الخبرة مع الثقافة النظرية عند بعضهم ، ورغم ذلك تراهم يحكمون على عمل ما بأنه جيد دون ان يستطيعوا ايضاح السبب ، ولكن الممثل المسرحي يجب ان لايخطىء في احكامه لكي تتوافر اسباب النجاح وبتكامل عمله . فاذا كان ذا خبرة ، وثقافة كافية ، أمكنه انتخاب الدور الملائم وقام بتحضيره على اتم وجه بعد ان يكون قد قدر وقته عندماقام بدراسته . وهكذا يكون العمـل الذي يتحمل عبأه منسجما ومتلاغا عندما يجمع ،الى جانب الفهم ، الحركةالصحيحة والايماء السليم والصوت المناسب.

ان دل كل مامر على شيء فانما يدل على ان ثقافة الممثل معقدة جدا فهي تتطلب منه ان يجمع بانسجام كما رأينا الثقافة النظرية مع الاستعداد الفني ولذا نجد المعاهد الفنيـة تقسم ساعات الدراسة بحيث تمنح الممثل للمعرفة الـكافية بالفلسفة وعلم الجمال والاقتصاد السياسي وتاريخ الفنون وتاريخ المسرح والآداب الى جانب ماتزوده به من مهارة مسرحية وتكنيك والقاءمسرحي ورياضة ورقص ومبارزة .

جرت العادة في القديم ان يقصد الممثل الذي يريد تكريس نفسه للمسرح اذا كانت لديه موهبة ، استاذا مشهورا يدربه ليجعل منه نسخة طبق الاصل عنه، فاذا كان القدوة غاية في الكمال استطاع ان يؤثر في التلميذ تأثيرا كبيرا . ولايغيب عن البال ان هذه الطريقة كانت تقتل الابداع الشخصي فتضخم السيئـــات التي قد تنتقل الى الممثل من استـــاذه سواء بسواء مع المميزات قد تكون جيدة .

يقول استانسلافسكي Stanislavski في هذا الصدد : « بعد ان استمع احـــد الأساتذة الى مقطع من تمثيلية تجري تمارينها امامه على خشبة المسرح ، اسرع صاحبنـــا فصعد المسرح ساخطاً وهو يوجه كلامه الى احـــد الممثلين قائلاً : (انك لم تهز رأسك ابداً . من عادة الانسان ان يهز رأسه حين يتكلم ، فعليك ان تهز رأسك بصورة الزامية) .

« ان لعادة هز الرأس قصة طريفة . كان فيما مضى ممثل يتمتع بشهرة

عظيمة جعلت منه قدوة في هذا الفن . ومن سوء الحظ انه كان مصاباً بعادة هز رأسه فلم يكتسب التلاميذ من كل جودة فنه الا هذه السيئة لأن هز الرأس عمل سهل . وقد استمر توارث هذه العادة السيئة عند الكثيرين ممن تخرجوا من المدارس الفنية » .

ولسوف يكون اهتمامنا اليوم منصباً على الفراغ، الذي احدثه انعدام الطرق الفنية والنظرة الساخرة التي ينظر فيها الى الفن على اعتباره للتسلية والترفيه فقط ، فنسده بتنظيم مبني على اسس دقيقة تتضافر فيها التربية النظرية مع التربية العملية .

ترتكز التربية النظرية للممثل على دراسة التعاليم الماركسية — اللينينية فهي تقود الى معرفة عميقة للعالم ولجميع ظواهره ، انها تحتوى على كل الامور الضرورية اللازمة للمثل كي يفهم ظاهرة الفن بوجه عام وتتضح لديه بالتالي دقائق الامور التي ترتبط بالتمثيلية .

ولكي يحقق الممثل الهدف الاكبر في فنه، ويصل الى جوهر الحقيقة ، عليه ان يضع نصب عينيه ما قاله « لينين » بشأن المعرفة :

« ان الطريق الديالكتيكي للوصول الى الحقيقة وادراك الواقع الموضوعي هو الانتقال من التأمل الحي الى التفكير المجرد ومن التفكير المجرد الى التفكير الواقعي » .

فالنظرية الماركسية — اللينينية تضع في متناول يد الممثل الوسائل والاساليب المختلفة لحل مايعترضه من مشاكل وقضايا دقيقة فتوحد في هذا المضمون مابين المثل المادي والممثل المبدع . كما أنها لاتنسى اهمية الالتحام مابين الطبيعة الفيزيائية والطبيعة النفسية فتجمع بينهما في اسلوب مسرحي . ولا شك بأنها تعرض بالتالي توفر العام والخاص لدى الممثل .

أما فيما يتعلق بالتربية المهنية فقد اعتمدت طريقة استانسلافسكي التي ترتكز على مبادىء علمية تبتعد عن الارتجال والفوضى اللذين كانا يسودان الطرق المسرحية القديمة . وهكذا امكن القول بأن طريقة استانسلافسكي قد حققت الواقعية الاشتراكية في الفن المسرحي حيث اتبعت الحقيقة كمعتمد اساسي . فحقيقة الحياة هي القاعدة التي يرتكز عليها كل ابداع فني ، وهي بهذا المعنى القاعدة التي يجب ان تكون الاساس لابداع الممثل . ولايضاح الهدف مما سبق قوله يجب ان نميز فيما تنتج بين ماهو باطل وبين مايسير بنا نحو الحقيقة من واقع الحياة . ومن هنا المبدأ

ينشأ مبدأ آخر كنتيجة ضرورية هو « يجب ألا نقوم بتمثيل الشخصيات الدرامية والعواطف بل يجب ان نعيشها . »

ان هذا المبدأ — ان يعيش الممثل ادواره — قد نبـذ كل سطحية ورفض التصنع والآلية وكل ما يمت بصلة الى مهنـة الممثل المحترف الذي يقعد عن الوصول الى الفن الحقيقي الحلاق المبدع .

يفسر استانسلافسكي في هذا الصدد معنى تقمص الممثل الشخصية الدرامية فيظهر اعتراضه القوي على الممثل الذي يظهر على المسرح ليعرض شخصيته هو مع تغيير بسيط . ان استانسلافسكي يعير التقمص اهمية كبيرة جداً ، ويعتبر فقدانه اندثاراً للدور الممثل وانعداماً للشخصية الدرامية . هذه هي بعض المبادىء الرئيسية التي تعتبر اساساً في تأهيب الممثل من الناحية المهنية .

ويجب ان نعترف بانه لاتوجد طريقة او مدرسة مسرحية يمكن ان تدعي بأن لديهـا الاساليب والوسائل التي يجب تطبيقها بصورة ميكانيكية . ذلك لأنه امر مستحيل ، وكل مانطمح اليه التربية المهنية هو الأخذ بيد الممثل نحو تحقيق الابداع وتأمين بعض الشروط التي تقود للممثل الى اظهار امكانياته الحلاقة .

فبهذا الشكل يجب ان ينظر الى الاساليب التي تدفع للممثل الى اتقان الجـانب الداخلي « النفسي » والجانب الظاهري « الفيزيائي » والجانب التكنيكي الخارجي الذي يسعى لتحقيق جهاز فيزيائي اهلا لترجمة ادق حالات المعايش .

فبدون اتقان هذا الجهاز الفيزيائي تبقى ثروة الابداع الداخلي كامنة .

ان التكنيك الداخلي يفترض سلسلة دراسية كاملة وتمارين عملية من اجل تكييف الصوت، واكتساب المهارة الكلامية واتقان الرقص،هذه الامورالتي تتصل اتصالا وثيقا بالتكنيك الداخلي. ولنترك الان استانسلافسكي يحدثنا عما جرى بينه وبين روسي Rossi المشهور بتمثيل للمأساة Tragedie لنصل من هذا الحديث الى المهارة الحقيقية التي يجب ان يتمتع بها الممثل : قال لي « روسي » وكنت في اول عهدي بالتمثيل :

لقد وهبك الله كل ماتحتاجه مسرحيا لتقوم بأداء دور عطيـل Othello وكل مجموعة شكسبير Shakespeare ويتوقف الامر عليك الآن .

أما الفن اللازم فسيأتيك بعد حين دون ريب .

— ولكن أين وكيف يمكن ان يتعلم الانسـان الفن وعلى يد من يكون ذلك ؟

— في الحقيقة ، ان لم يكن هناك معلم ماهو يدعمك وتستطيع أن تركن اليه في ذلك فلبس باستطاعتي الا ان اوصيك باستاذ واحد .

وبلهفة سألته :

— من هو ؟ ما اسمه ؟

أجاب « روسي » باشارته المشهورة التي اعتاد ان يستعملها في تمثيلية كين « Kean »

انه افضل استاذ هو انت نفسك الى جانب جهودك المستمرة .

والحق اننـــا اذا عالجنـــا الوجوه المختلفة المتعلقة بتربية الممثـــل يجب ان نضيف امرا آخر: هو ان كل هذه الامور تصبح باطلة ان لم يضمن الممثل عواطفه الاعمال التي يقوم بها ،واذا لم يسمح لموهبته — الجذوة المتقدة — ان تتفجر حرة منطلقة، واذا لم يجعل من كل دور يؤديه مشكلة حيوية .

فالخطر الذي يتربص بفننا ، في استطاعته ان يجعل من اكبر موهبة شبحا تائها لاقيمة له حين يقوم الممثل بأداء دوره دون اي شعور او احساس ؛ وهذا فرض بالطبع ان نبتعد عن مجرد التقليد .

لقد نصح تشرنشفسكي Cernishevski قائلا : « يجب علينا ان نعي الحقيقة التي نرغب في اظهارها ، يجب ان تكسب المشاهدين بجعلهم يشاركوننا في كل مايجري على خشبة المسرح» .

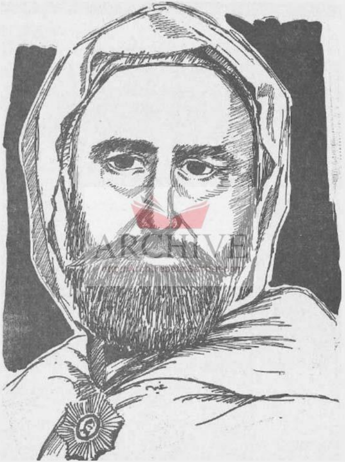
نجد في رسالة ن . أوغاريف N. Ogarev الى أ . هرزن A. Herzen بعض الأمور التي تتحدث عما يليه « ان لذة الشاعر تتوفر فقط حين يتوفر الشعور باللانهاية .

ان الاحتماء في ملجأ والتحديق في السقف لأمر تافه وبعيد عن السمو . يفضل بعضهم هـذا الجوء تهرباً من لهب الشمس ومن رذاذ المطر . انهم مخطئون . لو كشفت السقف لشاهدت السماء الزرقاء الممتدة وجالت عيناك في الارجاء ، ولامتلأت روحك بالسعادة . هذه هي اللذة الشاعرية» .

وهنا مايتوجب على كل ممثل ان يحققه ، ان يؤثر في المتفرجين حتى يخيل لهؤلاء ان السماء قد انشقت وانهم في طريقهم الى اللانهاية ، عليه ان يضع في ابداعه سحراً وافراً غزيراً حتى تنطبق عليه الكلمات التي قالها غوغول Gogol فيه : **« في لمحة بصر انتقل بعيداً في جميع أنحاء العالم »** .

وفي الختام ، أحب ان اثير أمراً يتعلق بمهمة الممثل التي كانت سائدة قديما . فقد كان يرفض ان يكون مجرد خادم للمسرح ، بل كان يعتبر نفسه أولاً مواطناً حقيقياً اميناً على اهداف شعبه وأمته . وهذا مانرغب في ان ينمو ويسود لدى الممثل في عصرنا هنا .





الاحتفال بنقل رفات

الأمير عبد القادر الجزائري

اختارت الجزائر موعدها مع عيد الاستقلال وعيد الرياضة والشباب ، لتحتفل بنقل رفات الامير عبد القادر الجزائري من دمشق . وقدمت الوفود الشعبية والرسمية والرياضية والفنية والعسكرية من البلاد العربيـــة والصديقة للاشتراك في الاحتفال .

كان وفد الجزائر برئاسة وزير الخارجية يتألف من بعض اعضاء مجلس الثورة الجزائري ورابطة قدماء المجاهدين واركان جبهة التحرير وكبار الموظفين .

وقد جرى للوفد الجزائري استقبال رسمي وشعبي حافل في مطار دمشق اشترك فيه الدكتور ابراهيم ماخوس نائب رئيس مجلس الوزراء وزير الخارجية والاستاذ جميل شيا وزير الاعلام وزير الثقافة والارشاد القومي والسياحة بالوكالة والاستاذ كامل حسين عن القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي وقائد قوى الأمن الداخلي ، وأعضاء السلك الدبلوماسي والقائم بالأعمال الجزائري في دمشق والاتحاد النسائي والأمير سعيد حفيد الأمير عبد القادر وأعضاء اللجنة العليا للاستقبال وكبار موظفي وزارة الاعلام ومراسلو وكالات الأنباء

المحلية والعالمية والمنظمات الشعبية وجمهور غفير من السوريين والجزائريين المقيمين في دمشق .

وقد عزفت موسيقى قوى الأمن النشيدين الجزائري والسوري وأدت ثلة من حرس الشرف التحية ترحيباً بالوفد الجزائري . وقد صافح الاستاذبوتفليقة وأعضاء الوفد كبار المستقبلين وسط الهتافات والأهازيج الشعبية الرائعة التي جعلت من استقبال الوفد الجزائري الشقيق تظاهرة قومية عبرت عن الروابط الأخوية بين أبناء الأمة العربية .

خلال اقامة الوفد الجزائري في دمشق ، قدمت الفرق الفنية والرياضية الجزائرية والسورية عدة حفلات ومباريات ، ونظمت وزارة الثقافة احتفالات قومية . قدم المسرح القومي الجزائري تمثيلية (القراب والصالحون) في صالة الحمراء وقدمت فتيات الفرقة الفنية الجزائرية احدى الرقصات أثناء زيارة الفرقة لقصر العظم وأحيت فرقة الفنون الشعبية الجزائرية حفلة على مسرح مدينة معرض دمشق الدولي ، قدم فيها المسرح القومي الجزائري المسرحية الغنائية (١٣٢ عام ثورة ضد الاستعمار) وقدمت فيها الفرقة أغاني شعبية جزائرية وموسيقى وموشحات . كما أحيت فرقة أمية القومية للفنون الشعبية حفلة على مسرح المعرض ، قدمت فيها بعض الرقصات والأغاني الشعبية وتخللت الحفل بعض الفقرات للفنانين الجزائريين .

عقدت في المركز الثقافي العربي بدمشق ندوة موضوعها (الامير عبد القادر ونضال الشعب العربي في الجزائر) اشترك فيها الدكتور نور الدين حاطوم والأديب الجزائري الشاب علي بن محمد والشاعر صالح درويش .

بين المباريات الرياضية ، مباراة بكرة القدم على أرض الملعب البلدي بين

فريق كرة القدم في الوفد الجزائري ومنتخب الجيش السوري انتهت بتعادل الفريقين بهدف لكل منهما ، وفاز فريق الكرة الطائرة للشابات الجزائريات على الفريق السوري ،وفاز فريق كرة السلة السوري على زميله الجزائري .

الوداع :

احتفلت دمشق احتفالاً شعبياً ورسمياً مهيباً بنقل رفات الأمير عبد القادر الجزائري من موطنه دمشق الى مسقط رأسه في الجزائر . وودع سفح قاسيون البطل بعد أن احتواه ٨٦ عاماً الى جوار الشيخ محيي الدين بن عربي ، وأودع الرفات ملفوفاً بالعلم السوري أكف الأبطال من أبناء الجزائر الذين حملوهـا الى جبالهم رمزاً لوحدة التراب العربي من الخليج الى المحيط . فقد حمل النعش لفيف من الضباط السوريين ووضعوه على عربة مدفع ، وسار الموكب تتقدمه صورة البطل في الشوارع المؤدية الى ساحة يوسف العظمة على ألحان الموسيقى الحزينة تواكبه جماهير المشيعين. واخترق الشوارع الغاصة بجماهير الشعب التي خرجت لتودع البطل الكبير ، بينما كانت طلقات المدافع تدوي تحية الوداع وقد ازدانت الشوارع التي مر بها الموكب بالأعلام الجزائرية والسورية .

وأمام المنصة الرئيسية لاحتفال الوداع ، استعرض الدكتور نور الدين الأتاسي رئيس الدولة والأستاذ بوتفليقة والدكتور يوسف زعين رئيس مجلس الوزراء حرس الشرف ثم توجهوا الى المنصة الرئيسية .

وفي جو حماسي تجلت فيه روعة اللقاء العربي ألقى الدكتور نور الدين الأتاسي والأستاذ بوتفليقة كلمتين قوميتين .

ورافق نقل الرفات بالطائرة وفد سوري برئاسة وزير الثقافة .

دفن الرفات :

اشترك العقيد بومدين في إنزال النعش من الطائرة . واحتفلت الجزائر احتفالاً مهيباً بدفن رفات الأمير . وكان في الاحتفال حوالي نصف مليون مواطن وأعضاء أربعين وفداً من الأقطـــار العربية والصديقة . وأعضاء مجلس الثورة الجزائري ووفود عربية وأجنبية في مقدمة الذين ساروا في موكب الجنازة الذي استغرق ساعتين من مطار الجزائر الى مقبرة الشهداء خارج المدينة حيث أعيد دفن الرفات. وألقى العقيد بومدين كلمة تأبينية .



من سيرة الأمير عبد القادر

ونضال الشعب العربي في الجزائر

الدكتور نور الدين حاطوم

عرفت الجزائر في عصرها الحديث تاريخاً حافلاً بالجهاد والدفاع عن البلاد ، واقترنت بهذا القطر الشقيق مواقع ومعارك مشرفة ، ضرب فيها شعب الجزائر أروع آيات البطولة والفداء ، ومنذ اقدم العصور ، وطاقات هـذا الشعب الهائلة تتفجر بالثورة تلو الثورة على الظلم والاستعباد ، حتى وكأن الجزائر لم تخلق الا ليكون ترابها الطاهر مثوى للشهداء ، وأرضها الثائرة مقبرة للاعداء .

واذا عرفت الجزائر في ماضيها العريق ضراوة النضال في دفع الاعداء ، وبذلت الشيء الكثير في الذود عن أهلها وحماها ، فان هذا العطاء لايعد شيئاً مذكوراً أمام ما أعطته في تاريخها الحديث .

لقد وجدت الجزائر نفسها أمام عدو غاشم يريد ابادتها ، فهبت ترد العدوان،

بكل غال ونفيس ، ولا تبالي بالتضحيات مهما بلــغ الثمن . وراحت تسطر في حاضرها المجيد بطولات تهون دونها بطولات الماضي واساطير الملاحم .

في صباح الخامس من تموز عام ١٨٣٠ دخلت الجيوش الفرنسية مدينة الجزائر ، بعد ان صبغت ثراها بدماء الابرياء ، ونزعت الاعلام الجزائرية عن الحصون والقلاع ودور الحكومة ورفعت مكانها أعلام الاستعمار الفرنسي . ومنذ ذلك اليوم المشؤوم بدأت المأساة الجزائرية .

ومهما تكن الاسباب التي افتعلها المستعمرون لاحتلال الجزائر ، ومهما غالى المدافعون عن وجهة نظر الاستعمار ، فلسنا بحاجة الى اقتناع يجعلنا نقبل أمثال هذه الادعاءات الكاذبة . لقد زعم بعض القادة المستعمرين ان الله سخرهم لاحتلال الجزائر ووضعها في ايديهم الأمينة ، بعد أن أخذوا على أنفسهم عهداً بأن ينشروا في ربوعها العدل والمساواة والحرية ، وينقلوا اليها العلم والنور والحضارة . ولكن احتلال الجزائر دل على الظلم والجهل وابادة السكان وتشريد الآمنين ، وقتــل الابرياء والاعتداء على الضعفاء ، مما لا يضاهيه سوى جرائم الصهاينة في فلسطين ، ومما لا يقره شرع او عدل او قانون أو وجدان .

ومنذ احتل الفرنسيون الجزائر وابناؤها الابطال صابرون يقاومون الغزو تلو الغزو ، وظل فتح الجزائر عبئاً ثقيلا على فرنسا ، يكلفها خسائر فادحة في الاموال والرجال ، لأن كل ظفر - بزعم الفرنسيين - على ابناء البلاد كان يتطلب منهم مواصلة الفتح والقتال ، وكل خذلان من جانبهم كان يقتضي من الجزائريين الثأر والانتقام .

غير ان هذه المقاومة الوطنية الاولى التي هبت للدفاع عن حياض البلاد ، منذ اول وهلة ، سرعان ما ادركت انها امام عدو يفوقها عَدداً وعُدداً وتنظيما .

فكان لزاما عليها ان تتدبر امرها ، وتنظم دفاعها ، فأوكلت الى الامير الشاب عبد القادر الجزائري ، زعامة الثورة لتقضي على الفوضى ، وماوسع الامير الا ان يلبي الدعوة واندفع بكل ما أوتي من قوة وايمان واخلاص . وقد اظهر من الحنكة السياسية والبراعة العسكرية والتنظيم الاداري ماحقق الآمال المعقودة عليه وماقوى مواقف الثورة ومواقعها . وبالرغم من الصعوبات المادية والمعنوية التي لقيها الامير المجاهد في سبيله ، فلم يفتر له عزم ، وانطلق في الدفاع حتى أذهل الخصوم . وبدا لهم ان يراوغوه فخطبوا وده عن طريق المعاهدات ، ثم مالبثوا ان نكثوا بعهدهم وانقضوا عليه ، وعرف الامير خبث العدو ومكره فمكر بدوره والتحم معهم في معارك طاحنة اوقعت في صفوفهم خسائر جسيمة ، فقابلها المستعمرون بالفظاعة والوحشية .

وكان الامير بين هذا وذاك لايستقر على حال : بين كر وفر وحرب عصابات ، يجمع شتات الاقوام ويؤلف بين قلوبها ، ولا يألو جهدا في تنظيم جيشه وتجهيزه بكل مايحتاجه من عتاد ـ وقد انشأ لهذا الغرض معملا للمدافع وآخر للبارود ـ ويتصل بالبلاد العربية المجاورة يطلب منها العون والنجدة ، وبالدول الاجنبية يفهمها قضية بلاده العادلة ويستدر عطفها ، ويقف عن طريق الصحف الفرانسية والاجنبية على كل مايجري في فرنسا ويتعرف بأحوالها والصعوبات الاوربية التي تتخبط فيها ، وينتهز الفرص للايقاع بالعدو . وقد دل في كل هذه المواقف على مرونة الدبلوماسي السياسي الواعي لقضايا بلاده .

ولاشك في انه بهذه السياسة التي انتهجها لنفسه يعتبر رائدا لرجال ثورة تشرين الثاني عام ١٩٥٤ التي استطاعت بما اوتيت من المنية وحسن تدبير وتصرف ومعرفة بخفايا الامور ، أن ترفع القضية الجزائرية الى العالم كله ، وتسمع صوتها ، وتجد لها انصاراً في كل مكان حتى في فرنسا نفسها .

وطالت مقاومة الامير ودفاعه ، فارتفعت الاصوات من كل مكان في فرنسا مطالبة بالخلاص من قضية الجزائر واحتلالها شبرا شبرا مهما كلف الامر .

وكعادة الاستعمار في مثل هذه الاحوال لجأت فرنسا الى الارهاب فعينت الجنرال بوجو حاكما عاما على الجزائر وخولتـــه صلاحيات واسعة وامدته بجيش عظيم ومال كثير .

وكان قادة بوجو في حملاتهم العسكرية على السكان الآمنين لا يتورعون عن البطش والتخريب والابادة والسلب والنهب والحريق .

وقد وصف أحد اعوانه وهو سنت آرنو هذه الاعمال الوحشية بكثير من اللامبالاة في كتابه « ذكرى جيش افريقية » :

« لقد كانت حملتنا تدميرا منظما اكثر منه عملا عسكريا . ونحن اليوم في وسط جبال مليانة ، لانطلق الا قليلا من الرصاص . وانما نقضي وقتنا في حرق جميع القرى والاكواخ .

ان العدو يفر أمامنا سائقا امامه قطعان غنمه » .

وفي رسالة اخرى يقول :

« ان بلاد ابن ناصر بديعة جدا ، لقد احرقناها كلها . آه ايتها الحروب ، كم من نساء واطفال اعتصموا بجبال الاطلس المجللة بالثلوج ، فماتوا هناك من الجوع والبرد وليس في جيشنا سوى خمسة قتلى واربعون جريحا » .

وقد اثار بعض النواب في المجلس الفرنسي هذه الحرب الوحشية على اثر حادثة « ولدرياح » التي ذهب ضحيتها الف نسمة عندما التجأوا الى كهف نيفاريا فرارا من جنود الغزو فانقض بيليسيه عليهم وأوقد النار عند افواه الكهف ثمانت

جميع من فيه اختناقا . وكان جواب رئيس الحكومة الماريشال سولت على هذا النقد ، ان هذه الاعمال قد تكون وحشية لو ان الحرب كانت في اوربة ، اما في افريقية فهذه هي الحرب بعينها .

وعبر الجنرال بوابه عن آرائه في الجزائريين بقوله :

« لكي نغبن العرب يجب ان نستعمل وسائل مثل وسائلهم غير المتحضرة » . ويعني بذلك تبرير سياسة حرب الابادة .

واعتبر بوجو النهب وسيلة من وسائل الحرب في الجزائر واطلق على هذه العملية اسم « سياسة تموين الحرب بالنهب » . وكان يتخذ الاحتياطات ويرسل تعلياته الى ضباطه لينفذوا عمليات الابادة بدقة ، لئلا ينجو احد من المعتدى عليهم فيخبر مراسلي الصحف بذلك .

وبعد نضال دام سبع عشرة سنة على هذه الحال ، عز على الامير ان تقاسي البلاد الويلات والخطوب ، دون كبير امل بالنجاح . فاستسلم للقضاء وسلم سيفه رمزا لحقن الدماء . وانتقل اميرنا الى فرنسا والقسطنطينية فبلاد الشام الى ان قدم دمشق فاستقبلته بأبهى حللها تقديرا لجهاده . وبها القى عصا الترحال واتخذها دارا له ومقاما .

واجتاحت سورية في تلك الآونة ازمة سياسية ، وفرقة دينية ، ومؤامرات دولية . وساعد الجهل المطبق والمنافع القريبة على التنائي بين ابناء البلد الواحد وزاد هذه الامور اضطرابا الصعوبات التي تعثرت فيها الاصلاحات في الامبراطورية العثمانية وماتركته من آثار في نفوس المسلمين والمسيحيين على حد سواء . وقد اصغت بعض الآذان لما يحاك في الظلام حول سورية وابنائها ، وخدعت بالحماية المزعومة التي كانت تلمح بها الدول الاجنبية سعيا وراء مصالحها الخاصة ، فأوغلت

في التمرد والعصيان . وماأتى عام ١٨٦٠ الا واشتعلت الفتن في جبل لبنان بين الدروز والموارنة ، وامتد لهيبها الى دمشق ، فراحت الغوغاء الجاهلة الجهلاء من اوشاب الناس واوباشهم تجدف المقدسات وتعتدي على المسيحيين . وهب الامير عبد القادر مدفوعا بروح العربي النبيل والمسلم الكريم ، ففتح داره في زقاق النقيب بحي العمارة بدمشق وآوى المسيحيين واكرم مثواهم واعاد الطمأنينة الى قلوبهم . ثم اندفع مع اشراف الناس ووجهائهم في هذا البلد الامين يستنكرون الفعال الشنعاء، ويقدمون المونات ، ويأخذون بيد المنكوبين من مواطنيهم ، الى ان انتهت الفتنة ، وعاد السلام والوئام . ولقد أضاف الامير بهذا العمل مكارم جديدة الى امجاده السالفة ، واعترف بفضله القريب والبعيد ، مما جعل الانظار تتطلع اليه ،وتوالت عليه آيات الشكر العميق من كل حدب وصوب ، وأتته الاوسمة والهدايا من مختلف الدول تقديرا لجهوده وحسن بلائه .

وطبقت شهرة الامير عبد القادر الآفاق ، وأخذت الألسنة والاقلام تلهج بذكره وترشحه لأعلى المناصب : امبراطور المشرق ، امبراطور الجزيرة العربية ، عزيز بلاد الشام ، أمير الشام ، أمير دمشق .

وظل الامير الحسيب النسيب يقضي ما تبقى من عمره الحافل بجلائل الاعمال ، وبالعلم والتعلم والتأليف والنشر ، ويختلف على علماء دمشق ويدرس عليهم . وقد برع في الفقه والتصوف والأدب وقرض الشعر . وهكذا جمع الامير في شخصه بين حد السيف وسحر القلم .

واذا كنا نهتم في هذه الايام الاخيرة في الجزائر وسورية بنقل رفات المجاهد الكبير ، الامير عبد القادر الجزائري ، من مثواه في دمشق الى مسقط رأسه في الجزائر ، فلا شك في ان هذا الاهتمام له معناه ومغزاه . فاسم الامير

عبد القادر مقترن بنضـال الجزائر وثورتها على الاستعمار ، ودفاعها عن الحرية والكرامة . واذا كانت الجزائر الوطن الاول للامير المجاهد فدمشق وطنه الثاني ، فلقد اختارهـا مقاماً ورحبت به ملء ذراعيها ، ولا تقل أعماله البيض فيها عن صنائعه الغر في الجزائر . لقد أقام الامير في دمشق منذ عام ١٨٥٣ وتوفي ودفن فيها عام ١٨٨٣ أي أنه عاش فيها ٣٠ عاماً . ومن ١٨٨٣ الى ١٩٦٦ وقبره ماثل الى جوار رفيقه الشيخ محيي الدين يذكر بآي بطولاته وامجاده .

وان من حق الجزائر ان تقاسم شقيقتها سورية شرف احتضان رفات البطل العربي لتتخذ منها رمزاً الارفاع المجيد الذي رفع الامير ورفعت الجزائر رايته ، وتترك الاجيال الصاعدة تحيي الآمال بذكراه ، وتتنسم عبير الحرية منه عن قرب . وسواء أكانت رفات الامير في دمشق أم في الجزائر فأرض العرب للعرب ، والتراب العربي غمد للعربي الكريم ، مهما تغير الزمن وتناءت المسافات .

ومضت الايام . فهل سكنت بعد استسلام الامير الجزائر ؟ ان خسران الجولة الاولى لا يعني خسران المعركة . ان الروح الدفاعية ، والايمان العميق ، والعواطف الكريمة ، التي غرسها الامير المجيد في ابناء قومه ، كانت للمناضلين الابرار خير دليل على درب الجهاد المقدس . وان الدروس التي تلقاها عنه رجال ثورة تشرين الثاني ومن سبقهم من الجزائريين الاحرار كانت نوراً يكشف لهم عتمة الظلام في طريق الحرية الشائك .

وفي الحقيقة ان استسلام الامير لم يضمن للمستعمرين الاستقرار والهدوء في الجزائر كما كانوا يؤملون ، بل ظلت الثورات تتعاقب وتعبر عن عدم الرضى والخنوع واستخدمت فرنسا في استعمار الجزائر اقسى القطاعات في دحر السكان

من المناطق الخصبة الخيرة الى الصحارى القاحلة . وفرضت على الاهلين الغرامات والمصادرات وحجز الاملاك وانتهاك الحرمات . وقلبت فرنسا في حكم الجزائر ، منذ عهد ملكية تموز حتى الجمهورية الخامسة أشكالاً وألوانا من حكم عسكري ومدني وادماج واسترضاء ولين واصلاح ومساواة والحاق ، فلم تبدل هذه الاساليب شيئاً في نفسية الجزائريين ، وبالرغم من التفنن في التفظيع ، لم يدخل اليأس قلوبهم ، ولم تهدأ للجزائر نأمة اوحركة او ثورة. ولم تعرف الجزائر استسلاما بالمعنى الصحيح ، بل فترات انطواء يتلوها تحفز واندفاع .

وبينما كان الاستعمار يحاول الحفاظ على الاوضاع المكتسبة بما أبقى من تخلف ، كان التطور يعمل خارجا عنه ، وعلى غير ارادة منه . واذا استطاع المستعمرون ان يحتلوا البلاد بقوة السلاح والوحشية ، فليس في ذلك مايدل على خضوعها واستكانتها لمشيئته . لقد اتخذت من وسائلها الدفاعية البدائية ، وعقيدتها الاسلامية ، ومقومات حياتها الوطنية والقومية ، وأخيراً من اسلحة الغرب الحديثة ، وطرقه وانظمته وعقليته ماجملها تقارع الغاصبين بكل شجاعة واقدام، ولقد أبدت الجزائر من التفاني وبذل الذات وكريم التضحيات ماسجل لها في التاريخ غر الصحائف ، حتى غدت هذه الأعمال في ذاتها خير مشجع للأجيال على مواصلة النضال والاندفاع في سبيل التحرر والخلاص .

وتهيأت مع الزمن القوى الثورية . ويأتي على رأس هذه القوى ورثة المجد التليد من رجال السلف الصالح ، وهم طبقة العلماء ، الذين لم يرضوا بذل الاستعمار ، فراحوا يقاومونه في حلك الظلام ، ويثقفون الناشئة الجزائرية على على ايديهم . وفي صباح كل يوم يستهل الاطفال اعمالهم في المدارس الابتدائية ، التي أسسوها بهذا النشيد :

وكانت هذه المدارس تزود ابناءها بتعاليم دينهم التي تحضهم على التحرر والدفاع والنضال ، وبلغتهم العربية التي ورثوها عن آبائهم واجدادهم ، واستطاع هؤلاء المشايخ الأفاضل ، على هذا النحو ، ان يحفظوا تراث امتهم ، وينقلوه الى النشء الجديد ويربوه تربية قويمة .

والى جانب هذه النخبة الفكرية التقليدية نشأت نخبة فكرية جديدة تثقفت على ايدي هؤلاء المشايخ ، كما تثقفت بالثقافة الغربية في مدارس الاستعمار وفي جامعاته ومؤسساته ، وحافظت على دينها ومقومات شخصيتها العربيـــة والاسلامية ، وأخذت مع تقدم الثقافة والوعي تقود الحركة الوطنية في بلادها وتوجها بأساليب حديثة مستمدة من أساليب الغرب المستعمر وتقنيته . ولقد كان التطور على درجة من السرعة تفوق حد التصور ، حتى ان مؤسسي النظام الاستعماري رأوا بأم أعينهم تداعي مبادئهم ومشاريعهم .

لقد تشكلت هذه الطبقة الواعية في فترة مابين الحربين وخرج منها زعماء وقادة ، وواتت ظروف الحرب ان ينشطوا للعمل بعد ان صدر ميثاق الاطلسي وما تضمنه من مبادىء حق تقرير المصير .

ولكن الحرب من جهة أخرى ، اتاحت للسلطات الادارية الفرنسية القبض على الزعماء الجزائريين وحل منظماتهم . وقد افاد الجزائريون يوم الثامن من أيار عام ١٩٤٥ من احتفال العالم بانتصار الحلفاء على المانيا النازية فخرجت جموعهم تحمل الاعلام الجزائرية معربة عن أمانيها الوطنية . فأثار ذلك حفيظة المستوطنين ورجال الامن في الجزائر . وانطلقت الشرارة فاشتعلت معركة حامية

تردد صداها في قسطنطينة وشهدت الجزائر في ذلك اليوم مذبحة مروعة لم يسبق لها مثيل منذ حرب الابادة .

يقول الأستاذ المناضل توفيق المدني :

اجتمع على المسلمين في الجهة الممتدة بين سطيف وخراطة وقالمة رجال الجند الفرنسي، بين مشاة وطيارين وفوق مصفحة ، ورجال البحرية الفرنسية الذين كانوا مستعدين على السواحل ، ورجال الجالية الاوربية الذين كانوا قد تسلحوا واستعدوا لذلك اليوم الاحمر الرهيب .

وفتح الجميع موسم الصيد الآدمي وطورد المسلمون كما تطارد السباع في الغابات . وعمت المذابح فذهب ضحيتها القرى العديدة ولم ينج منها رجل ولا امرأة ولا صبي . وكانت المصفحات الفرنسية تسير صفاً فتدمر القرى على رأس من فيها من رجال ونساء وأطفال حتى تسوي بها وبين فيها الارض . وكانت الدماء تجري غزيرة ، وقد صبغت التراب بلونها الاحمر ، وبصفة ظاهرة ، مكنت المصورين أخذ مناظر لها من الطائرات .

وكان رجال المليشيامن المتطوعين الأوربيين يهاجمون الديار ويقبضون على النخبة المثقفة الجزائرية، ويذهبون بها خارج المدينة ويأمرونها تحت تهديد الرشاشات بحفر القبور الجماعية ، ثم يقتلون الفوج اثر الفوج ، ويأمرون كل فـــوج بدفن الفوج السابق .

ولم يحترم هؤلاء الطغاة النساء ، فقد ارتكبت بحقهن أعمال الوحوش .

ولكن هذه الحركات جاءت متأخرة ، وفي وقت تبدل فيه وجه العالم بظهور قوى جديدة تبشر بزوال الاستعمار . وبعد المماطلات التي تضعها السلطات الفرنسية مع ما كان يرافقها من أعمال العنف بين حين وآخر ، اقتنعت الأحزاب

الجزائرية أخيراً ان طريق النضال طويل .

وفي ليل أول تشرين الثاني عام ١٩٥٤ اندلع لهيب الثورة الجزائرية وشن جيش التحرير الجزائري ثلاثين هجوماً في مختلف انحاء الجزائر على المعسكرات الفرنسية ومراكز الشرطة فدل ذلك على ان الأمر ليس حادثاً عابراً او فردياً . وانطلق نشاط الثورة في منطقة القبائل وجبال الاوراس ، عرين الثورات . ثم امتدت العمليات الى الصحراء عام ١٩٥٧ والى أرض فرنسا بالذات عام ١٩٥٨ .

واعتبرت السلطات الاستعمارية هذه الثورة انما هي من فعل عصابات من قطاع الطرق ، لا هدف لها الا السلب والنهب . فلم تجد هذه الدعاوى أي استجابة لدى الوطنيين ، حتى ان الأهالي بجبال الأوراس رفضوا ان يذعنوا لانذار القوات الجوية باخلاء المنطقة تمهيداً لضربها من الجو .

وفي الحقيقة ان اخوتنا الجزائريين لم يشكوا السلاح ويطلبوا الموت ، الا لأنهم ادركوا ان الحياة التي يحيونها اشد من الموت ، ولذا فضلوا الموت على الحياة، وأرادوا ان يكسروا السلاسل والاغلال ويتحرروا ، بعـــد ان تبدلت شرائط الحياة وتنفست الشعوب الصعداء ، وشعرت بمقدرتها وقدرتها وحقها في تقرير مصيرها وآذنت ساعة الخطر منذرة بزوال الاستعمار .

ولم تكن ثورة الجزائر حرب دين لدين وعرق لعرق أو حضارة لحضارة او شرق لغرب او اسلام لمسيحية ، لقد كانت ثورة تحريرية بكل مافي هذه الكلمة من معنى ، ثورة تجند الامكانيات الجزائرية لتوصل الجزائريين الى شاطىء السلام، لترد لهم انسانيتهم وتنقذهم من العبودية والضياع الى الوجود الحر الكريم .

لقد ادرك الجزائريون ان نضالهم مشروع ، وانه أصدق تعبير للوطنية

الجزائرية المحررة . وما من انسان في الجزائر الا وأخذ يدرك ان المقاومة الجزائرية ضربت اللامبالاة والقعود والتحفظ والحياد الضربة القاضية ، وسلكت سبيل العمل والجد . ولقد تملك الجزائريون شعور بأنهم ليسوا وحدهم في المركة ، بل ان وراءهم الشمال الافريقي برمته ، واخوتهم العرب والمسلمين في كل مكان ، والشعوب الحرة ، وفرنسا الديمقراطية واحرارها وعقلاءها ومفكريها ، واحرار العالم . لأن القضية الجزائرية أصبحت قضية الحرية البشرية ، وان تمادي المستعمرين في غيهم لن يؤدي في النهاية الا الى اثارة المغرب العربي من اقصاه الى اقصاه ، وتهديد آخر حصن للاستعمار في افريقية وتحريرها تحريراً كاملاً .

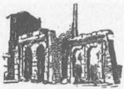
وأخيراً توج العمل الدائب والكفاح المرير بالاستقلال ، الذي لولاه لما اجتمعنا باخوتنا الجزائريين في دمشق وعلى أرض العروبة وافيائها الرحبة .

وهكذا حقق ابطال تشرين الثاني نبوءة الأب الروحي الكبير والرائد الاول للثورة الجزائرية ، الأمير عبد القادر ، حين قال في رسالة وجهها الى الجنرال بوجو :

« ان هذه القارة هي بلاد العرب ، ومها طالت اقامتكم فيها ، فلستم معشر الفرنسيين سوى عابر سبيل . ولومكثتم فيها ثلاثمائة عام كالاتراك . فسينتهي الامر بخروجكم منها » .

لقد دخل الاستعمار الجزائر مذموما بعد لطمة المروحة ، وخرج منها مدحورا بقوة السلاح . دخلها في الخامس من تموز عام ١٨٣٠ ، واعلنت الجمهورية الجزائرية في الخامس من تموز عام ١٩٦٢ . مائة واثنتان وثلاثون سنة بين الاحتلال والاستقلال . ان ابطال الجزائر قد تجاوزت فعالهم احلام عبد القادر ، فحققوا المعجزة ، واوفوا ماعاهدوا الله عليه ، وكان حقا على الله نصر المؤمنين .

وهكذا اخرجت حرب التحرير الجزائر من اطارها الاقليمي ووضعتها في نطاق الوطن العربي الكبير ، وجعلت من قضيتها قضية العرب ، قضية القومية العربية. وهذا كان لرفع العزلة عن الجزائر ، وجعلها تفكر تفكيرا قوميا عربيا . وقد تحقق الاستقلال والجزائر المجاهدة جاهدة في العودة الى عروبتها الاولى ، عن طريق التعريب والاستعانة بابناء العرب في هذا العمل الكبير ، ووضع يدها بيد شقيقاتها العربيات والمشاركة الفعلية في القضايا العربية ، وهذا الاتجاه ينم ولاشك عن عروبة جزائرية أصيلة .



الأمير عبد القادر

أديباً وعالماً

للدكتور ممدوح حقي

الأمير عبد القادر الجزائري رجل مجدود حمله الحظ الطيب على كفيه الناعمتين منذ ولادته وسار معه في يفاعه وشبابه وخدمه في كهولته وشيخوخته وحرس روحه بعد وفاته .. فألفت فيه الكتب وحبرت المقالات ونظمت القصائد.. ثم هاهو ذا يقف الى جانب ذكراه فتهتم بـه دولتان عربيتان شقيقتان هما سورية والجزائر لتحمل رفاته الطاهر من مدفنه في سفح قاسيون بدمشق ، من جوار جدث الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي بعد ثلاث وثمانين سنة الى موطنه الأصلي ليضمه تراب البلد المضمخ بـدماء مليون شهيد ساروا على درب الأمير في الكفاح حتى النصر المشرّف .

أعد الحظ السعيد للأمير ولادة نبيلة من أبوين شريفين ، ومهد له فراش

العز قبل اطلالته المشرقة على الدنيا . فأبوه السيد محيي الدين زعيم ديني مرموق في مجتمعه يعود نسبه الى الحسن بن علي بن أبي طالب. والحسن سبط الرسول الأعظم محمد ﷺ من ابنته فاطمة الزهراء. وللنسب الطاهر الشريف قيمته العظمى آنذاك في بلاد المغرب ، خصوصاً وأنه في سلسلة نسبه يمر بالأدارسة الذين حكموا تلك الديار ما بين عام ١٧٢ ﻫ الى ٣٧٠ ﻫ . وأمه سيدة من فضيلات عصرها اجتذبت احترام الشعب الجزائري وكبار من عرفوها بعد ذلك في فرنسا وتركيا والشام.

وظهرت عليه علائم النبوغ منذ صغره . تلقى مبادىء القراءة والكتابة والحساب والعلوم الدينية في قريته (القيطنة) على يدي والده واستكمل ما نقصه من علوم العربية والدين في وهران وحفظ القرآن الكريم والحديث وهو دون العشرين .

واعتزم والده الحج الى مكة المكرمة فانتقاه من بين جميع اخوته لمرافقته، وزار الحجاز وسوريه والعراق ومصر وليبيا وتونس واجتمع بأكابر علمائها فأفاد من رحلته هذه — وقد استغرقت أكثر من عامين — علماً وخبرة وتجربة وأدباً رفعته في عين مجتمعه الى مقام محترم ممتاز .

ودخلت فرنسا الجزائر غازية مستعمرة عام ١٨٣٠ فاستسلمت الجيوش التركية بعد أيام من الهجوم وخلت البلاد لأهلها يدافعون عنها . فاجتمعت القبائل العربية على السيد محيي الدين ليرأسها في الجهاد، وكان قد بلغ من الكبر عتياً فرشح لها ولده عبد القادر وهو في الرابعة والعشرين من العمر فأظهر من البراعة في التكتيك الحربي وقيادة الجيوش والشجاعة في المعارك .. ما رفعه الى مصاف الأبطال العظام النادرين واعترف له خصومه بالبراعة والشهامة والاقدام والدقة في المناورات العسكرية والتلفاف السياسي ... قبل أن يعترف له الاصدقاء .

ودامت المعارك نحو ستة عشر عاماً لم يتخل عنه الحظ فيها مرة الا ليعود اليه مرات . ولما استنفد جميع قواه استسلم الى خصومه وهو يعتقد بأن الحظ تخلى عنه في هذه المرة والى الأبد . غير أن السنين التالية برهنت على عكس هـــذا الاعتقاد اذ استفاد من طول الحبس عليـه في طولون وبو وأمبواز خمس سنوات لا عمل له فيها الا القراءة والاطلاع والصلاة .

وفي لحظة من لحظات اليأس المرير وانقطاع الأمل بعودة الحرية اليه ، يفاجئه الامبراطور نابليون الثالث بزيارة ويسرّح له حريته المكبلة ويدعوه الى باريس صديقاً رفيع المقام لمشاركته ومشاركة الشعب الفرنسي أروع حفلاته القومية . ثم يضع تحت تصرفه بارجة كبرى تحمله الى استانبول عاصمة الامبراطورية العثمانية اذ ذاك فيقابل السلطان عبد المجيد خان ويقدم له قصيدة طويلة ويسكن في بورصة ليكون قريباً منه وبعد نحو عامين ونصف استأذن جلالته في الهبوط الى دمشق هرباً من الزلازل المتكررة المخيفة فيها ولجوءاً الى بلد عربي مضياف يحمل من التاريخ ذكريات العظمة الاسلامية على عهد الأمويين وصور البطولات الرائعة على عهد صلاح الدين وهي باب الكعبة المشرفة على أية حال وواسطة عقد البلاد العربية وصلة الشرق بالغرب وملتقى الثقافات القديمة والحديثة ... واستقر فيها كما قال ابنه : « فيممنا البلاد الشامية وزلنا بالديار الدمشقية وألقينا فيهـا عصا الترحال وحللنا عقدة الرحال فائزين بكمال التبجيل والاحـترام حائزين أعلى منزلة وأرقى مقام ملحوظين بأنظار الدولة العليـة مشمولين بصنوف مواهبها السنية لايتقدم علينا أحد في المحافل .. » (تحفة الزائر ص٥جز١٠طبعة ٢) .

ورافقه الحظ بعد ذلك خادماً مطيعاً حتى آخر لحظة من حياته. استفاضت شهرته في أرجاء المعمورة وحمل اسمه الى أطراف الدنيا معززاً مكرماً خصوصاً

بعد حوادث عام الستين وقرن اسمه الى أسماء عظماء عصره من ملوك وسياسيين وعلماء وأدباء وشعراء وصوفيين . ووقفت دمشق على قبره تبكيه وترثيه شعراً ونثراً وخطابة ... وطارت البرقيات بنعيه والترحم عليه وذكر محاسنه الى كل قارىء في العالم وألفت عنه كتب فرنسية وانكليزية وكتاب واحد باللغة العربية فقط وضعه ابنه محمد باشا .

واستراح الزمن ثلاثة وثمانين عاما تلهى خلالها باحداث عالمية جسام كادت تنسينا اسمه . واستفاق الكون على صوتين متقابلين من الجزائر وسورية يناديان معاً بتكريم ذكرى البطل الخالد ونقلت رفاته من دمشق يوم ٤ تموز عام ١٩٦٦ باحتفالات مهيبة استمرت اسبوعاً كاملا ضجت بهـــا الصحف والمجلات والاذاعة والتلفزيون وتحدثت باسمه الجماهير العربية تبرهن للعالم أجمع أن الأمة العربية لاتنسى أبطالها وخدمة قضيتها الكبرى والمخلصين من أبنائهـا العاملين .

تلك هي خلاصة موجزة أشد الايجاز لتاريخ بطلنا الخالد الأمير عبد القادر ، لم نتعرض الا الى الخطوط العريضة الواضحة منها كان لا بد منها تقدمة بين يدي البحث في ثقافة الرجل ومدى عمقها واتساعها . واذا كانت شهرة الأمير البطولية قد كسفت شهرته العلمية فلا غرابة لأن الجماهير تعجب بالبطل المغامر قبل أن تعجب بالعالم والشاعر . وقد لاحظت ذلك قبل بضع سنين فخدمت آثاره العلمية والأدبية تجلية لشخصيته ونشرتها على التوالي واحداً بعد واحد . وقرأ الناس ديوان شعره وأطروحته (ذكرى العاقل) وكتاب (المواقف) كما قرأوا كتاب (تحفة الزائر) مطبوعة طبعاً أنيقاً محققاً مدروساً مصححاً معلقا عليه بايجاز وقد فصلت جملها المعقدة المتعاظلة بضوابط التنقيط لتسهيل التقاط معانيها . وتوالت علينا

عبارات الشكر من أحفاد الفقيد المثقفين ،وقد خدمت آثار جدهم حين قصر بحقه كثيرون . واني لا أعتبر الامير عبد القادر ملكاً لأسرته ووطنه الجزائر وحسب، بل هو ملك سورية التي عاش فيها أكثر من ثلث عمره بل ملك العرب أجمعين بل ملك التاريخ نفسه ولا فضل لي في خدمة آثاره الا كما خدمت آثار سواه من أبطال العرب الأقدمين .

ومصادر ثقافة الأمير : القرآن الكريم والحديث الشريف والكتب العربية القديمة ومؤلفات الشيخ محيي الدين بن عربي في التصوف وبخـــاصة منها كتاب (الفتوحات) . أما اساتذته فوالده السيد محي الدين قبل أي انسان آخر ومدرسة وهران وما افاده من دروس المشارقة امثال المحدث الكبير السيد عبد الرحمن الكزبري في دمشق والامام خالد النقشبندي السهروردي والسيد محمود الكيلاني في بغداد . ومن لقيهم من بعد في دمشق كالسيد محمود الحمزاوي ومحمد الخاني في الشام وسواها . وتركلنا من آثاره ثلاثة كتب هي : المواقف ، وذكرى العاقل ، والديوان . ويبدو أن له كتباً اخرى سواها ضاعت مع الزمن لم اجد لها اثراً عند أحفاده ألمح اليها ابنه فقال : « وبرع في فنون علوم الشريعة والحقيقة وله تآليف عديدة حسبك منها كتاب المواقف » (التحفة ص ٩٣٢ جزء ٢ طبعة ٢) ولعل في عرض آثاره وتحليلها تحليلاً سريعاً مايشير الى مستوى ثقافته في ثلاث نواح هي التصوف والعلوم والشعر .

المواقف :

كتاب في التصوف ربما قبس فيه كثيراً من آراء والده في كتابه المسمى (ارشاد المريدين) . واطلع على كتاب المواقف لعضد الدين فسار على نهجه . وليس مواقف الامير تفسيراً للقرآن الكريم كما ادعى بعض من لم يطلع عليه او

قرأ الصفحات الاولى منه فقط . بـــل هو منهج خاص في شرح بعض الأفكار الصوفية المستخلصة من بعض الآيات أو الشعر الصوفي . وقد يقف احياناً ليشرح رأياً منمضاً غلفه شيخه وحبيبه محيي الدين بن عربي في كتاب الفتوحات تغليفاً لا يدركه الا خاصة الخاصة من متذوقي علوم الحقيقة لا الشريعة . كما يقف احياناً اخرى ليناقش آراء بعض المتصوفة كالشيخ عبد القادر الجيلاني والغزالي ومحمد الخاني الدمشقي وسواهم .

واسلوب الكتاب – على عمومه – سهل حاول فيه تبسيط معقدات التصوف فنجح في اكثره نجاحا ملحوظاً . وقد طبع الكتاب لأول مرة بعد وفاته بأربعين سنة (١٣٤٤) فجاء في ثلاثة اجزاء بنحو ١٥٠٠ صفحة من القطع المتوسط . ووقفت على تصحيحه في طبعته الجديدة وتنقيحه واصلاحه والتعليق وصرفت في ذلك قرابة عام .

ذكرى العاقل وتنبيه الغافل :

هو الاطروحة التي قدمها للمجمع العلمي الفرنسي في اخريات سنيه فقبل بها عضواً مراسلاً وترجمها له سكرتير القنصلية الفرنسية في دمشق ترجمة امينة جداً . موضوع الاطروحة ، الحرف واللغة والعلوم . غير ان كثيرا من الآراء التي عرضت فيها قد فقدت قيمتها اليوم مع تقدم العلوم التجريبية وكانت في زمنها ذات قيمة كبيرة ، وكانت تعد علماً . والظاهر انه متأثر فيها بالثقافة القديمة تأثراً بالغا جعله يرفض كثيرا من النظريات الحديثة التي اثبت العلم التجريبي صحتها وعليها بنيت الفيزياء والكيمياء والميكانيك الحديث فهو يعتقد مثلاً ان النور يخرج من العين وينطرح على المرئيات لتصبح قابلة للرؤية . أليس النور منطفئاً في عين الاعمى فلا يستطيع الابصار ؟ ويرفض نظريات انعكاس النور وانكساره وانتشاره رفضا

باتا ويسخر بالمتعلمين الجدد هؤلاء الجهلاء الذين يقبلون دعاوى بعض علماء الفرنجة في مسير الأشعة وسرعة النور !!

وله كثير من مثل هذه الآراء التي فقدت مقوماتها في العصر الحاضر مع التطور العلمي الحديث ولكنها ـ مع ذلك ـ استبقت للرسالة قيمة تاريخية تصور آخر ماتوصل اليه العقل الشرقي الميتافيزيائي في حومة العلوم أواسط القرن التاسع عشر .

وقد طبعت الرسالة لأول مرة طبعا سيئا جدا في كتيب صغير بحجم الكف اما الطبعة الجديدة فقد ظهرت كتابا محترما مدروسا مطبوعا طبعا انيقا جدا في نحو ١٥٠ صفحة بالقطع المتوسط .

الديوان :

جمع محمد باشا من شعر ابيه الامير ديوانا صغير الحجم طبع طبعا سيئا ، أغلب الظن انه لم يقف بنفسه على تصحيحه لكثرة مافيه من غلط . والذي دعانا الى هذا الشك ان مستوى محمد باشا اللغوي عال وصحيح اذا قيس الى ادباء عصره وان كان في اسلوبه ميالا الى السجع على عادة زمانه ولا يعقل ان يخرج من بين يديه ديوان شعر أبيه مع شدة حبه له واعجابه به على هذا المستوى من الفوضى .

تناولت الديوان عام ١٩٦٠ فرتبته ترتيبا جديدا وحصرت قصائده ـ بحسب موضوعاتها ـ في خمسة فنون هي : الفخر والغزل والمساجلات والمناسبات والتصوف . وأضفت اليه ماتيسر لي جمعه وشرحته شرحا مستوفى وقدمت له بمقدمات ضافية وأهديته الى العالم الحر بمناسبة مرور مئة عام كاملة على الثورة المؤلمة الحزينة التي راح ضحيتها كثير من ابرياء المسلمين والمسيحيين والدروز عام ١٨٦٠

وقدمته الى الثورة الجزائرية وتنبأت فيه بنجاحها وختمته بالتأكيد على أن صورة الأمير عبد القادر الجسدية وان زالت من عالم الوجود فان روحه الخالدة مابرحت تشجعنا على النضال والسير فوق دربه حتى تكون كلمة العروبة هي الخالدة وكلمة الله هي العليا .

والملاحظ ان الامير في فخره يستمد من عنترة والتنبي ومن تجاربه في المعارك التي خاضها مع جيشه جنديا كسائر الجنود . وفي غزله صورة من شعر القرون الوسطى : يشكو الهجران ويسهر الليل ويسامر النجم ويحمل النسيم سلامه وشوقه ومحبوبه غزال وجهه بدر وشعره ليل وقامته رمح وعيناه سهام . . وكذلك مستواه في سائر فنونه .

طبع الديوان طبعا انيقا جدا واعيد طبعه ثلاث مرات خلال خمس سنوات وسنختار فيما يلي بعض ابيات من شعره تمثيلا لكل ما في الديوان .

١ – كان من عادته ان يكتب خلف صورته اذا اهداها الى اصدقائه الابيات الاتية :

لئن كان هذا الرسم يعطيك ظاهري ... فليس يريك الرسم صورتنا العظمى
فثمّ وراء الرسم شخصٌ محجّبٌ ... له همة تعلو بأخمصها النجما
وما المرء بالوجه الصبيح افتخاره ... ولكنه بالعقل والخلق الأسمى

٢ – ويفتخر عادة بجده رسول الله (ﷺ) فيقول :

أبونا رسول الله خير الورى طرا ... فمن في الورى يبني يطاولنا قدرا

او بأسرته وقبيلته فيقول :

لنا في كل مكرمة مجال ... ومن فوق السماك لنا رجال

ولو ندري بماء المزن يزري … لكان لنا على الظمـــأ احتمال
ورثنـــا سؤدداً للعرب يبقى … وماتبقى السماء ولا الجبـــال
فبالجد القـــديم علت قريش … ومنّا فوق ذا طابت فعال
ومنـــا لم يزل في كل عصر … رجال للرجال هم الرجـــال
سلو تخبركم عنـــا فرنســـا … ويصدق ان حكت منها المقال
فكم لي فيهم من يوم حرب … بـــه افتخر الزمان ولايزال

وقد يفتخر بنفسه وشجاعته فيقول :

اذا مالقيت الخيـــل اني لاول … وان جال اصحابي فاني لهـــا تالي
وأورد رايات الطعـــان صحيحة … وأصدرها بالرمي تمثال غربال
ومن عادة السادات بالجيش تحتمي … وبي يحتمي جيشي وتحرس ابطالي
وبي تتقي يوم الطعان فوارس … تخاليهم في الحرب أمثال اشبال
اذا ماشكت خيلي الجراح تحمحماً … أقول لها صبرا كصبري واجمالي
وعني سلي جيش الفرنسيين تعلمي … بأن منايام بسيـــفي وعسّالي
سلي الليل عني كم شققت أديمه … على ضامر الجنبين معتدل عال

٣ – ومن غزله قوله :

أود بأن ارى ظبي الصحارى … وأرقب طيفه والليل سار
واطلب قربه فيزيد بعـــدا … قديما من وصالي في نفار
وهـــذا الظبي لايرعى ذماما … ولايرضى مؤانســـة لجار
يتيه بـــدله وبصول عمـــداً … غـــني بالجمال فلا يداري
فان هو لم يجد بالوصل اصلا … ويدني الطيف من سكني وداري
أقل للنفس ويك ألا فذوبي … وموتي فالقضاء عليك جار

٤ ـ أما شعره التصوفي فتقليد لابن عربي تمثله القصيدة التالية وهي في فكرة وحدة الوجود :

أنا حقٌّ أنا خلق أنا ربٌّ أنا عبد
أنا عرش أنا فرش وجحيم أنا خلد
أنا ماء أنا نار وهواء أنا صلد
أنا كمٌّ أنا كيف أنا وجد أنا فقد
أنا ذات أنا وصف أنا قرب أنا بعدُ
كل كون ذاك كوني أنا وحدي أنا فرد

وقد ينظم أحياناً مقطوعات صوفية في حال غيبوبة فتجيء مختلة الوزن والموسيقا والقافيـــة خالية من المعاني المفهومة وهي تصور شطحاته الصوفية وغيبوبته عن الوجود الى اللاوجود المبهم . والقصيدة التالية مثـال لهذا النوع من الشعر الصوفي :

أردد طرفي في الرسوم فلا أرى سوى من به كانت رسوماً وآثاراً
وأسالهـا عنه فـكلٌّ أجابني بأنه مارآه يوماً ولا أدري
فقلت لهم هذا عجيب فانني ما أبصرته إلا بكم متظاهرا
عرفته منكم ثم زاد في عرفاننا بأنني إياه ولكن منكرا

أما وقد استعرضنا شيئاً من شعره فلا بأس من استعراض أسطر من نثره لتدل على أسلوبه وتشير اليه . وكان الامير كثير المكاتبات للعلماء والفقهاء يوجه اليهم الاسئلة ويجيب على أسئلتهم ، نخص منهم قاضي فاس وعلماء مصر والشام . رد في احدى رسائـله على سؤال للسيد محمود حمزة مفتي دمشق حول الصابئة فقال :

« والصابئة فرقتان : أصحاب الروحانيات وأصحاب الهياكل وهي السيارات السبع . اما أصحاب الروحانيات فمذهبهم أن للعالم صانعاً فاضلاً حكيماً مقدساً عن سمات الحدوث ، والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول الى جلاله وانما يتقرب بالمتوسطات المقربين اليه وهم الروحانيون المطهرون القدسون جوهراً وفعلا وحالاً فهم المقدسون عن المواد الجسمانية المنزهون عن الحركات المكانية والتغيرات الزمانية وانما ارشدنا الى هذا معلمنا الأول (عاذيمون) وهو شيث عليه السلام (وهرمس) وهو إدريس... الخ »

وشرح في المواقف نظرية للشيخ أرسلان الدمشقي فقال :

« قال تعالى : (اليه يصعد الكلم الطيب) . والقرآن واحد والكلم جمع كلمة والواحد هو المفرد الكثير فرد بالقرآن كثير بالفرقان . وأما من رأى الله في كل شيء فهو العارف الجامع للحق والخلق فليس بمحجوب عن الحق بالخلق ولا عن الخلق بالحق فيعرف بماذا الحق حق وبماذا الخلق خلق وبماذا الحق خلق وبماذا الخلق حق وبماذا الحق ليس الخلق وبماذا الخلق ليس بحق وبماذا الحق والخلق موجودان كما يعلم وبماذا الحق والخلق موجودان لا كما يعلم وبماذا الحق والخلق معدومان كما يعلم ... »

وبعد فالحديث عن ثقافة الامير واسع فسيح ان لم يكن ميسوراً شرحه في صفحات (المعرفة) فسيتحمله الكتاب الخاص به .



عـزالديـن التنوخي

١٨٨٩ – ١٩٦٦

بقلم احـمد الجنـدي

فقد العالم العربي منذ ايام عالماً من علمائه الاعلام ولغوياً كبيراً قلما تنجب الايام مثله هو المرحوم الاستاذ عز الدين التنوخي نائب رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق الذي توفي في صبيحة يوم الجمعة الواقع في ٢٤ حزيران سنة ١٩٦٦ .

كان عالماً في الدين واللغة والنحو والعروض. كما كان راوية للشعر والنثر من خير ما نظم الناظمون وكتب الكاتبون ، هذا ، الى ذاكرة قوية غريبة في حفظها ووعيها واستجابتها حين يراد لها ان تستجيب ، يضاف الى هذا كله الالمام كاف في لغات عديدة من الفرنسية والانكليزية وتركية وفارسية فقـد كان ، رحمه الله ، في كل هذا مرجعاً .

لم يكن الاستاذ التنوخي مرجعاً في كتبه ومؤلفاته التي انشأها وحققها وترجمها فحسب، بل كان في حياته في المجمع موئلاً لاعضائه وموظفيه وزواره يرجعون الى ذاكرته فيما يستعصي عليهم معرفته من كلمة لغوية او نادرة نحوية او قضية فقهية ، او مشكلة تفسيرية . فكان اسرع في الاجابة

الى كل ذلك من الكتاب نفسه ، وكانت اجابته لا يأتيها الباطل أبداً لشدة تثبته مما يقول وتأكده مما يروي .

وكان كل عالم عنده معرضاً للخطأ لأنه انسان يخطيء ويصيب ، كما كان كل كتاب في رأيه غير خال من العيب لأن الكمال لله وحده ؛ وأذكر شاهداً على هذا اني شاهدته يراجع الجزء الاول من المعجم الكبير « تاج العروس » للزبيدي ، وقد ملأ حواشيه بملاحظاته القيمة وتعليقاته الرائعة . وبعد أن قرأ علي شيئاً من هذا قال : « ان الزبيدي ذاته لم يسلم من الخطأ في هذا المعجم الرائع » ودلني على خطيئة تاريخية تورط بها هذا العالم الكبير ، وقد كان رحمه الله يقرأ لي ثم التفت الي يقول: «لا تستغرب ان يقع الزبيدي في الخطأ فقبله وقع في الاخطاء ابن منظور ، وابن سيدة ، والفيروزبادي ، والجوهري ، والفيومي ، الى آخر هذه الاسماء التي خلدت بجهودها اللغوي وبحثها العلمي والنحوي » .

وكان كريماً بعلمه وافادته ، بل ربما اعترف لك بالجميل اذا انت سألته سؤالا ولو انهكه هذا السؤال واضناه بحثاً وتنقيباً ؛ وكنت ارى فيه رحمه الله مرجعا يغنيني عن حمـــل الكتب وتقليب الصفحات والتحديق في المراجع ، فآتي اليه في الصباح - في غرفته المجاورة لغرفتي في دار المجمع - وقد سجلت ما اريد السؤال عنه في ورقة ، وما أكاد اطل عليه حتى يقول : اهلا وسهلا ، هل اتيت بالبضاعة ؟؟؟ ، فاذا امسك بالورقة قام لتوه الى اجزاء المعاجم والكتب ينثرها امامه على المنصة وكأنه يحفظها عن ظهر قلب فيجيب على اسئلتي الواحد تلو الآخر ، وما يمضي وقت قصير حتى اكون قد اخذت الاجوبة من منبعها واعود مستغنيا عن كل هاتيك الكتب الى غرفتي لأسجل ما اجابني عليه واثقا مطمئنا ؛ فاذا مر بي بعد ايام من الانقطاع عنه أطل علي من باب الغرفة يقول لي: «لم نرك منذ أيام ؟» وكأنه يذكرني بضرورة تكليفه العمل فقد كان العمل اللغوي احب شيء اليه في هذا العالم .

كان رجل دين وتقوى بغير تعصب او تزمت ، وكان وطنياً لا يخشى في رأيه لومة لائم ، وكان مجاهدا في سيفه وقلمه ،

فقد كان من اوائل اعضاء المنتدى العربي في الاستانة ، وهو الذي ناهض العهد التركي ايام ظلمه وتعسفه . وكان رفيقا للشهداء الابرار في رحلتهم الى الحجاز ، وهم الامير عارف الشهابي ، وعمر حمد ، وجلال البخاري ، وقد غير طريقه فذهب الى العراق وذهبوا هم الى الحجاز فكان حظه في النجاة وكان حظهم في الاستشهاد ، وكان معلما لأجيال برمتها في العراق وسورية .

ولد عز الدين التنوخي رحمه الله في عام ١٨٨٩ الميلاد بدمشق وبدأ حياته بتعلم القرآن في المدرسة الابتدائية السباهية ثم درس مبادىء اللغات : العربية والتركية والفارسية والفرنسية في المدرسة الرشيدية الابتدائية العالية وبعد نيل شهادتها انتقل الى مدرسة الفرير الفرنسية فنال شهادتها الثانوية ، ثم ذهب الى الازهر فمكث فيه خمس سنوات فنال شهادته العلمية ثم ذهب الى فرنسا مع البعثة العلمية الاولى الدمشقية ، ونال من فرنسا شهادة الزراعة . فلما عاد الى وطنه عين معلما للزراعة في المركز الزراعي في بيروت عام ١٩١٣ ، وفي عام ١٩١٤ اعلنت الحرب العالمية الاولى فدعي الى خدمة العلم ، ففر من الخدمة لاطلاعه على سوء نية جمال باشا السفاح والتحق بالشهداء الذين لجأوا الى بادية الشام ومنها الى الجوف ، دومة الجندل قديما ، ومن هناك ذهب الى العراق ليلتحق بالثورة العربية وعين في حكومتها وزيرا للزراعة ، ثم انضم بعد ذلك الى الجيش العربي في العقبة ودخل معه دمشق في نهاية الحرب .

وفي دمشق الفت وزارة المعارف مجلسا للمعارف كان عضوا فيه ، وقد تحول هـــذا المجلس الى المجمع العلمي العربي وانتخب التنوخي امينا لسره واشرف على اصدار مجلته مدة من الزمن كما كان مديرا لمجلة التربية والتعليم ورئيساً للجنة التأليف والترجمة في الوزارة . ثم ذهب الى العراق بعد معركة ميسلون وعين في بغداد استاذاً للأدب العربي في دار المعلمين الاولى ثم دار المعلمين الثـــانية وساعد في تحرير مجلة التربية والتعليم التي كان يشرف عليهـا الاستاذ ساطع الحصري .

ثم عـاد الى سورية ليؤازر في مجلة المجمع العلمي وليكون امينا لسر المجمع

وليحقق عدداً من المخطوطات الهامة ، يضاف الى هـذا التدريس في المدارس الثانوية ودار المعلمين العالية وتدريس العلوم العربية في كلية الآداب في الجامعة السورية.

وفي عام ١٩٦١ انتخب عضواً في المجمع العلمي العراقي ، وقد ألف وحقق ما يزيد على خمسة عشر كتاباً كلها في اللغة والعروض والأدب والنحو منها :

١ - **شرح « الايضاح » للجلال القزويني في علوم البلاغة في ثلاثة اجزاء.**

٢ - **احياء العروض**

٣ - **تحقيق وشرح كتاب « الابدال » لابي الطيب اللغوي في جزءين**

٤ - **تحقيق وشرح كتاب « المثنى » لأبي الطيب اللغوي**

٥ - **تحقيق وشرح كتاب « الاتباع » لأبي الطيب اللغوي**

٦ - **تحقيق وشرح « الابـدال » للامام الزجاجي .**

٧ - **تحقيق وشرح « مقدمـــة في النحو » لخلف الاحمر .**

كما شارك رحمه الله في وضع « المعجم » العسكري بقسميه الفرنسي - العربي والانكليزي - العربي . ولقد ظل رحمه الله دؤوباً على العمل نشيطاً في خدمة اللغة والعلم مثابراً على واجباته في الحياة. في يوم الخميس الواقع في ١٩٦٦/٦/٢٣ ترك المجمع بعد انتهاء العمل في ذلك اليوم وخرجنا واياه لنودعه وما كنا نعلم انه الوداع الاخير ، لقد كان ممتلئاً بالنشاط والحركة والحديث والطرائف التي كان يحفظ منها المئات والمئات ، وذهب في ذلك النهار الى المزرعة في ظاهر دمشق ، وقد ظل ليله ناعم البال قرير العين قرب اولاده يحدثهم ويأنس بهم فلما طلع الفجر واراد الصلاة لم يستطع فقد خار عزمه ووهنت قواه فجـأة ، وحاول رحمه الله ان يصعد الى غرفته فما استطاع ، واسلم الروح الى بارئها .

رحم الله الفقيد رحمة واسعة وعوض الامة العربية عنه خير العوض فقد كان كنزاً من كنوز اللغة وعلومها وكان صديقاً من خير الاصدقاء واستـاذاً من انبه الاساتذة .

عمر فاخوري

أديب من لحم ودم

١٨٩٥-١٩٤٦

للسيدة وداد سكاكيني

يحتفي أدباء العرب بذكرى رائد مجدد مر على غيابه عن الدنيا عشرون عاما هو المرحوم عمر فاخوري الذي كان من الطليعة الفكرية التحررية في أدبنا الحديث.

أنبتته بيروت في أعقاب القرن الماضي وأعدته موهبته وثقافته ليكون من أعلام البيان والنقد والوطن في هباته للحرية والتطور، فبدأ حياته الأدبية وهو طالب في الكلية العباسية التي خرجت أنداده من شباب الطليعة الفدائية في الحرب العالمية الاولى، وكان عمر فاخوري على الحداثة يتوقد حماسة للفكرة العربية التي جاهد من أجلها روادها وذووها في بلاد الشام على الاصطلاح القديم، فكافحوا بالأقلام والأرواح ظلم الحكام الغاشمين الذين استهانوا بكرامة الشعب، وحقه في الحرية والتعليم

والتقدم ، فظهر عمر من هؤلاء المبكرين الثائرين على الطغيان العثماني ، متحفزاً للكفاح أيام الدراسة ، وفي خلال تحصيله وتجواله في البلاد ، كتب بحثه القوي الاول « كيف ينهض العرب » تعبيراً عن رأيه وتفكيره ومشاركته لزملائه في حركات الوعي والتبصير للشعب المتململ. ثم تبدل الطغيان عدواناً آخر فأخذ عمر يكتب في صحف دمشق وبيروت مقالات فكرية ونقدية حتى انطلق الى باريس لدراسة الحقوق وارواء الظمأ من منهل الفن والمعرفة ، ولما عاد من الغرب بمثل الاطوار التي عاد فيها توفيق الحكيم مزوداً بثقافة جديدة واسعة وشوق الى التجديد في الادب والحياة كانت بوادر الموهبة والتجاريب تساوده بالحاح وتزهده في مزاولة المحاماة التي تمرس بها على طريقة خاصة كالتي تمرس بها صديقه الفكري أبو الطيب المتنبي في الآفات ، فآثر عمر الوظيفة في وطنه بقيودها وحدودها على حرفة ضاق بها ، ومن عادة أكثر الادباء ان يحترفوا التدريس أو الصحافة تأميناً للمعاش ، لكن عمر الذي كانت آماله كبيرة كأعماله رضي بالوظيفة في الدوائر المقاربة أميناً عاماً ثم مفتشاً ، لينصرف الى كتبه وأوراقه من حين الى حين ، وكان ديوان المتنبي أحب رفيق اليه كلما خطر في باله الرجوع الى التراث في الشعر أوحاول النظم وقد يمتد ذوقه وطبعه الى أدب الجاحظ الذي أوتي مثله خصائص التهكم في التعبير والمطارحة ، وربما أطال النظر والتأمل في مباهج الطبيعة والحياة التي تلقى عنها كثيراً من العبر والأحداث .

ولئن تأثر أدبنا الحديث في عهد عمر بثقافة الغرب ومذاهبه الفكرية والحضارية فان طوابع التقليد والتكرار كانت تتجلى في آثار الشعراء والكتاب المعاصرين ، فرأى في أكثرهم نسخاً متشابهة وطواحين ألفاظ ، والحياة من حولهم تمج بحوافز التطور والابداع ، وقد تفتحت منافذ الشرق والغرب على الوعي القومي والاجتماعي وتنازعت أدب العرب تيارات متضاربة ، فدعا الفاخوري عمر لانتفاضة تحررية تتناول وسائل التفكير والتعبير وتطلق المواهب المتفتحة والفنون الجديدة

من قوالب التكلف والتقليد ، منددا بالسهولة والسطحية في أدبنا الحديث ، وقد رأى الذين يتناولونها في نتاج ضحل غزير « يتزاحمون بالمناكب في طريق ممهدة يمشي فيها العميان بلا أدلة ولا عكاكيز » على حد قوله في مفهومه للأدب والاديب. على أن ماقدمه للمثقفين والمتعلمين وللجمهور الواعي فيما قلت صفحاته ودلت سطوره وما بينها من لمحات تهكمية كان ناطقاً بطاوعة اللفظ الرصين والمعنى الشفاف لتعبيره الأنيق الذي كلفه معاناة وجهداً ، فابتدع لأدبه أسلوباً بليغاً تأبى على التزاوق والتقعر ، وامتلأ على ايجازه بمعاني الحياة وصورها المتخطفة من الواقع ، وأودعه آراءه وهواجسه في الكتب العربية والاجنبية التي قرأها ، وفي ماقال بعض الشعراء والكتاب من منظوم ومنثور ليس فيه الا التردم والهلهل وقد ذهب أمثالاً وغذى أجيالا. وفي مقالاته الادبية التي جمعها في كتب حمل على النسخ المتعددة، وكانت لمتشاعرين ونظامين في سوانح الرثاء المشهود والثناء المجدي ، او لمدبجي مقالات تقليدية لم تعرف التجدد الا في نسخها فسمى أصحابها أدباء الحبر والورق، وأخذ يناشد الأديب المطبوع بأن يكون من لحم ودم ، متعمق الاحساس بذاته والمجتمع الذي يعيش فيه معبراً عنها بصدق الأداء والشعور .

ولم يكن عمر فاخوري في نقده الصراح وتلميحه أحيانا ذا ادعاء وتورم بل كان ذا دعوة هادفة وقدوة ملتزمة بأصول البيان، وقيم الفكر والأخلاق ، فعبر عن الحياة الأدبية والشعبية بما تطلبت روح العصر والنهضة ، وتناول في موضوعاته الحية القوية أهم القضايا والمعضلات التي عانت منها الجماهير بعد الاستقلال، وكان عمر اذا وقف خطيبا هز النفوس بروعة أدائه ودقة نقده ، وقلّ أن بدأ كلامه دون أن ينقد نفسه ثم يعرج على موضوعه الذي انتزع حقيقته وصوره من الحياة والزمن بكلمات ملهمة محكمة ، تخرج من قلبه الى قلوب المستمعين ويسري تأثيرها فيهم كما يسري الفن في أدبه ومزاجه ولهجته البيروتية الأصيلة .

ولما دهمت عمر فاخوري في زهوة عمره وأدبه فجيعة فادحة ذهبت بسعادته

الزوجية رانت على حياته وبيته الكآبة والحسرة فاعتزل الناس شهوراً أدار فيها الحوار الصامت بينه وبين نفسه ، لكنه لم يطق الصمت طويلا فاستله القلم من عزلته ولوعته ورده الى اوراقه حيث وجد ذاته الشاردة ، والى كتبه يلتمس فيها السلوى والعزاء .

وتفقده الجمهور الذي باداه عطفا بعطف وإيمانا بإيمان فآنسه باللقاء وأخذ عمر يمشي في السوق والطريق ليتصل بهؤلاء الكادحين والمكافحين الذين يمثلون الحياة في مراسها اليومي ويفتح مكتبه في الوظيفة للمراجعين دون وساطة حاجب او بواب ، فهل نزل عمر فاخوري بأدبه الرفيع الى الشارع والساحة ليخاطب أكبر عدد من الناس بما يستهويهم ؟ وهل دخل الملاهي الليلية ليخرج بعدها بكتب ترضي العابثين والمراهقين وما أكثرهم !

لو تصفحنا مؤلفات الفاخوري التي تمثل على قلتها أدبه ووجهته في الحياة لوجدناها في عناوينها ومحتوياتها زاخرة بقيمتها الموضوعية والفنية نضاحة بمحبة الشعب وتزجية الوعي والرأي من أجله ونقد الشوائب والمعوقات لنهضته ، وقد استمد فحواها من الحياة التي ذاق حلوها ومرها وعرف خيرها وشرها ، وكان علقمها أشد مذاقا وتصوراً لظلمة الدنيا في وجوه المتجنين بالمكروه ، غير أن عمر الذي أحب الأدب والجمهور لابسته في انطلاقه الجديد روح ثائرة متوجعة المهموم والمظلوم ، ناقمة على المستهينين بالكرامة الانسانية والأدبية ، وقد أججت شعوره الفني فجعلته يشق على نفسه باسلوب عمري عجيب ، كان يزداد تأنقا وتألقاً بما شع فيه من حدة الاحساس والبيان ، ففي « الباب المرصود » و « الفصول الاربعة » و « اديب في السوق » تجد اروع النقدات السددة في مقالات وجيزة اتقن الفاخوري صنعها كما لم في نتاجه الادبي فن القصة . ولو طال عمره لأكمل « حنا الميت » وغيرها من القصص التي كتبها على سجيته وطريقته ، وقد سمعته يلقي بعض فصولها بلهجته البيروتية وحرارة اعجابه بأبطالها .

ومن عجب ان يبرز عمر فاخوري في لبنان والعالم العربي اديباً ناقداً دون ان يشارك في معركة نقدية من

المارك التي دارت بين الأدباء والمفكرين في عصره حول العامية والفصحى والقديم والحديث واللاتينية والسكسونية وغيرها من الموضوعات التي ملأت الصحف العربية والندوات بأخبارها وآثارها، لأن عمر على إيمانه بالتراث واعتزازه بذخائره القيمة كان ناقداً للحياة نفسها وناقداً لنفسه وللأدب الذي يصور هذه الحياة، ويعبر عن مزاج قائله والعصر الذي عاش فيه، فجاءت نظراته النقدية في صور تفتح الأعين، وتحمل المشاعل، ولعل صاحبها سبق أدباء اليوم الى مايعنون بالفن للفن والهادف والملتزم في الأدب اذ كان عمر فاخوري فيما كتب وخطب على اهتمامه بأسلوبه ملتزماً بقضايا الحياة اليومية والمصيرية، وكأن العناية الالهية وكرامة الأديب في انسانيته ورسالته جعلته موكلاً بهؤلاء الذين يشده اليهم الوجدان والايمان، ومسؤولا تجاه نفسه وأدبه عن همومهم وحاجاتهم وما كابدوا في أمسهم ويومهم من عنت النفـــوذ وهوان التخلف والحرمان، فكان أداء الفاخوري يتوخى هدف التسامي بالحياة والأحياء، وزحزحة الزيف والظـلام عن وعي المتطلعين الى خلف الابواب المرصودة، فتذوق القراء الجدد أدبه بما ينبغي له من تفهم وتقدير واعتزاز بتجاوبه معهم، وقد عد بعض المتعنتين آراء الفاخوري في ذلك الحين بدعة وافدة، وفاتهم أن أديب التحرر والتطور كان يعبر عن حاجة المجتمع الى مايفك القيود عن طاقتـه والى حقه في التعليم السـليم والكتاب النافع والمعيشة اللائقـــة، ولم يكن بأدبه تقليديا أو متكلفاً، بل ثوريـاً كاشفاً عما في رأيه وشعوره، وكانت دراسته في باريس وصداقته بالفكر والثقـافة لأدباء الحرية والانطلاق المعاصر تغذي منازعه الانسانية والوطنية .

كان يطيل الصحبة لأناتول فرانس واندره جيـــد وفاليري وغـــيرهم كدوستويفسكي وتولستوي وغـــوته وشكسبير فقرأ روائعهم باللغة الفرنسية التي أتقنها، وعب من عبقريتها حتى ارتوى، وملأ خزائن كتبه من أدبها وفنونهـا، وقل أن ازدحمت في اديب عربي ثقافة

شرقية وغربية كما ازدحمت في شخصية هذا الاديب الخالد .

ويخيل الي أن عمر فاخوري في ثقافته العميقة وتعلقه بالحياة والاحياء ومعاني الديمقراطية والقيم الروحية تلاقى على البعاد وتفاوت في التعبير والسن مع الاديب الناقد محمد مندور الذي تلقى مثله في باريس ثقافة قوية متعددة الجوانب ، وعلى اقطاب الحرية والادب والقانون وعاش في ظلال المحبة والسلام وإنمارس النقد على طريقتـــه ووهب له شجاعته ونبوغه ، والدكتور مندور جعل الأدب الصادق رسالة الحياة بكل مافيها وكشف عن محاسنها ومساويها حتى ارتأى أن يخوض الادباء في كل ناحية من نواحيهـا ، ولو كانت مما تجافوا عنه وتحاشوا وهو السياسة .

وكذلك اقدم عمر على ما احجم عنه كثير فكان حافز التطور والتجديـد في المجتمع سبب تحول في أدبه الى الناحية التي تحاماها ، فآخذه بعض أحبابه وقرائه بما أخـــذ به نفسه في الكفاح الأدبي والسياسي لتحقيق مايطمح اليـه الشعب العربي في سيادته الوطنية وتعلقه بالمصير الذي يوحد الكلمة ويجمع الشمل ويضمن العدل والكرامة .

وفي حدة الأزمات العالمية رأى الدنيا تتمخض عن عالم جديد ، فخاطب الشباب الصاعد «بأن يرفعوا الجمهور بحيث لاتبعد الشقة بينه وبين السواد منه ، لقد بعد عهدنا بالفكر الوثاب والحياة حتى أمسينا كآلة قديمة الطراز صدئة الجهاز »(١) ودعا المثقفين والادباء من الكادحين بعواطفهم وأيديهم للبناء الجديد حتى أصبحت حياته الفكرية واليومية تتمثل نقداً بانياً وتوجيهاً دائبا ، وفي فورة التطور الاجتماعي بعد الاستقلال ناداه الشعب ليكون وجها برلمانياً جديداً فاستجاب لكنه خاب في الانتخاب ، ولو أنسأ الله في أجله لرأى صديقه الشاعر سعيد عقل بعد عشرين عاما يرتد مثله بخيبة الفوز في البرلمان ، وقد انسد بابه في وجه الأديب الجماهيري محمد مندور

(١) الفصول الأربعة ، وكل مابين قوسين من أقوال عمر .

الذي ملأ القلوب من حبه وأدبه وهذا يدل على ان السياسة ماتزال هي الظافرة بما تريد .

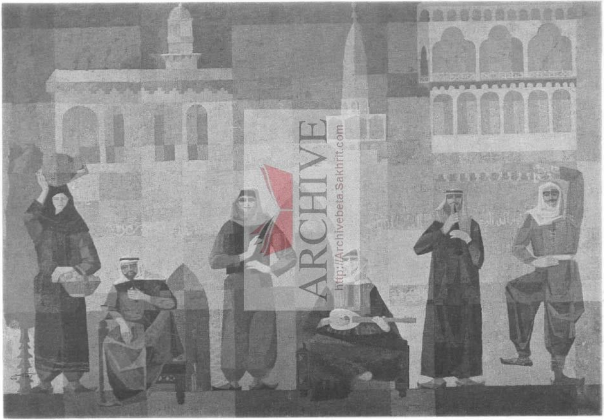
أما قول الفاخوري بأن الاديب ينبغي أن يكون من لحم ودم فان مارمى اليه هو ان يكون الموهوب الاصيل انساناً قبل كل شيء « لامسيخاً لوقطعت شرايينه لما أخرجت الا حبراً ولو مزقت لحمه لما أخذت الا ورقا » ولا يجديه حفظه لأكداس من الكتب ان لم يدخل معترك الحياة وتنفذ أشعة روحه وموهبته اليها ويتلقى منها أكثرمما تلقى من المدرسة .

ان عصرنا العشرين قد ابتدع في جحيم يديه أدباء من حديد ونار وليسوا من لحم ودم ، فالآلات الناطقة وان كانت تحاكي صوت الانسان فانها من المحال أن تتبدل من عند نفسها أو تتحول ، وكان عمر فاخوري يقدس الابداع ويدعو للتجديد في الادب ، وما كان أحب اليه من الاديب الصادق الذي يصدر عن ذاته وحقيقته ولا يعيش وراء الانسحاب أو فوق الضباب على ان عهده كان مثل ميثاق مسؤول سعى وراءه الى أدب حي يغير بعض المفاهيم ويدخل التطور على الفكر العربي الحديث . وقد ضمت مؤلفاته آراءه في المسألة الشرقية والغربيـــة ومآخذه العنيفة على بعض المستعمرين فيما حرفوا بالتراث .

فاذا كرم الادباء ذكرى عمر فاخوري فانما يجددون وفاءهم وتعلقهم مثله بالقيم المثلى في الادب والحياة .

ومتى أهملوا ذكريات نوابغهم او نسوها كانوا غافلين عن حقيقتهم ورسالتهم في الوجود ، ولقد قال عمر :

« سيأتي الف عام ثانيـــة على ذكرى أبي الطيب ، وشعوه رهن البحث والدواسة » وأدب الفاخوري التحرري من هذا القبيل الذي تترادف الذكريات عليه وهو جدير بنشره وتعميمه واستطلاع جوهره الذي قام على أدب الحياة لا على أدب الورق والمداد .



وجيه ستوت — من الفنون الشعبية —

في المكتبة العربية

في قواعد اللغة

تعليق على كتاب المذكرات لسعيد الافغاني

بقلم جميل علوش
— الكويت

« المذكرات » كتاب في قواعد اللغة العربية صادر عن مطبعة جامعة دمشق، وضعه الاستاذ سعيد الافغاني لطلبة السنة الاولى من كلية الآداب . وقد رأيت أن اتعرض لهذا الكتاب بالنقد والتعليق ، لما لمناهج الدراسة المقررة من تأثير على تهـــذيب الطلبة وتوجيهم . والأستاذ الافغاني شديد في المحاسبة على الخطأ البسيط والهفوة الطفيفة فليعذرني اذا كنت شديداً عليه في كشف الهفوات واظهار المغامز.

ولي على هـذا الكتاب مآخذ ثلاثة أوجزها في ما يلي :

١) ان مواده مرصوصة رصا ومعروضة بشكل موجز وحاسم ، لا مجال فيه للتحليل او البحث مما قـد يجعله غير ذي جدوى الا لمن يستظهره عن ظهر قلب كما يصنع معظم الطلاب في الجامعة .

٢) يعتمد المؤلف على الشاذ ويجعل منه أحيانا قاعدة مطردة مكتفيا للتدليل ببضعة أبيات من الشعر وسأذكر ذلك في حينه .

٣) في الكتاب مجموعة من المزالق والأخطاء التي يجب أن يتطهر منها الكتاب

حتى يعود على الطلبة بالفائدة المرجوة والغاية المنشودة .

والغريب في الأستاذ الأفغاني أنه يقبل كل ماجاء عن النحاة كأنه حقيقة واقعة وحجة قاطعة . وينسى وهو المحقق الكبير والنحوي الشهير ولا من يجحد أن آراءهم متضاربة في المسألة الواحدة . وليس من المنطق أن نقبل كلها على أنها صحيحة . والنحاة ليسوا معصومين عن الزلل في آرائهم ونظراتهم . فلقد كانت تعرض لهم ظواهر في اللغة تدعو الى التأمل، فيفسرونها ويضعون لها التخريجات التي يبتدعها فطنهم وتستنبطها قرائحهم . وقد يصيبون شاكلة الرمي وقد يخطئونها . وقد يخالفهم التوفيق وقد يخالفهم . وكانوا ينهون حديثهم في المسألة بقولهم : والله أعلم . وعلم النحو لا يعتمد على السماع كعلم اللغة ثم هو ليس مما يؤخذ مشافهة عن الثقاة . وهو كذلك ليس وحيا حتى يقبل كما ورد عن السلف بنصه وفصه . انه يعتمد على العقل والجدل المنطقي . وما دام كذلك فليس معقولاً أن نضع له حداً ونجعل له نهاية ونعتبره كأنه الكلام المنزل لا تحريف فيه ولا تبديل . ومن هذا نفهم أنه لا يكفي أن ندعم رأينا بما ورد عن فلان وعن فلان ، حتى تثبت لنا صحة استشهادنا بالأدلة والبراهين .

انفذ من حديثي هذا الى بحث مسألة نحوية واحدة للتدليل على أن الاستاذ الافغاني يجاري النحاة القدامى دون محاسبة أو جدال . ألا وهي مسألة لام الجحود.

ورد صفحة (٣١) قوله فيها :

« وهي المسبوقة بكون منفي : لم تكن لتكذب. لأن الفعل مع أن المستترة مؤول بمصدر في محل جر باللام . ويتعلق الجار والمجرور بالخبر المحذوف والتقدير : لم تكن مريداً لتكذب. ونفي ارادة الكذب ابلغ من نفي الكذب » .

وهذا الكلام مهلهل ضعيف وتخريج غير مقبول ، يتطرق اليه الفساد من جميع نواحيه . وهذه البراهين والأدلة :

١) ان قوله : « لم تكن مريداً لتكذب » تركيب ضعيف لم يستعمله العرب قط ولا يأتي بالمعنى المقصود من لام الجحود . ولا يغني عنها بأية حال من الأحوال .

٢) لقد عبر العرب عن هذا المعنى بقولهم : لم تكن تريد الكذب أو لم تكن تريد ان تكذب . وهو كما قلت ليس له علاقة بلام الجحود. انه يعبر عن معنى آخر.

٣) ان اللام المذكورة في التركيب الجديد هي لام التقوية وليست لام الجحود بدليل امكانية الاستغناء عنها، اذ نستطيع أن نقول لم تكن مريداً الكذب .

٤) إن (أراد) لا تتعدى باللام بل بنفسها مباشرة وماجاء مخالفاً لذلك فهو شاذ لا يقاس عليه كما ذكر صاحب لسان العرب في بحث هذه المادة حيث استشهد بالبيت التالي :

أريد لانسى ذكرها فكأنما

تمثل لي ليلى بكل سبيل

وخرجه على تضمين (أراد) معنى آخر.

أما قوله أن « لم تكن لتكذب » أبلغ من « لم تكن تكذب » فخلط واضح . إن الفرق بين التركيبين ليس من ناحية بلاغية بل من ناحيـة معنوية . وليس الفرق بينهما كالفرق بين « إن زيداً قائم » و « زيد قائم » . من وجهة توكيدية . إن الفرق معنوي . فالجملة الخالية من لام الجحود تنفي الكذب عن المخاطب في الزمن السابق او في ساعة معينة منه . وهذا لا يمنع أن يكون عاد الى الكذب في الحاضر أو ان يعوداليه في المستقبل. لم تكن تكذب ولكني أراك تكذب الآن وأظنك ستكذب في المستقبل . أما الجملة المتحلية بلام الجحود فلا تعني انه لم يكذب فقط ، بل تعني ان الكذب ليس في جبلته وفي طبيعته ماضياً وحاضراً ومستقبلا .

اما تقدير خبر لكان فغير صحيح لأن " كان " هنا تامة . وهذه براهيني وادلتي على تمامها :

١) لو كانت ناقصة لما امكن الاستغناء عن خبرها بل لما كان حذفه واجباً وهو ليس كوناً مطلقاً او وجوداً عاماً حتى يصبح حذفه والاستعاضة عنه بشبه جملة .

٢) ان تقديرنا لا على اعتبار انها ناقصة لا يعطي المعنى المقصود، ونظل بحاجة الى تقدير خبر والى تعليل صحيح .

٣) ان (كان) الناقصة حيثما وجدت يمكننا الاستعاضة عنها بصار او أصبح او أضحى وهذا لا يستقيم هنا . لا يصح أن نقول لم تصبح لتكذب .

٤) ان كان الناقصة لاتدخل على لفظ الجلالة لانها تدل على صفة في حالة معينة والله جل جلاله لايتغير ولا يتبدل. وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم. فكان هنا لايصح ان تكون ناقصة بل هي تامة وهي كذلك في كل موضع تدخل فيه لام الجحود.

مختصر الحديث أن لام الجحود تقع بعد كون تام منفي. وهي ليست حرف جر حتى نؤول مابعدها بمصدر ونجره بها. ولسنا بحاجة الى هذه التعليلات الملتوية والتقديرات البعيدة. ان الجملة التي تقع فيها لام الجحود جملة بسيطة بعيدة عن التعقيد، وهي تعبير في اللغة فريد من نوعه فيه قوة وفيه قطع وتقديره يجعله سمجا باردا.

وورد صفحة (٤٤) قوله: أن (أي) في: «أي يوم تسافر اصحبك فيه». ظرف زمن. وهذا خطأ انها نائب ظرف زمان. وفرق بين المفعول فيه ونائبه وبين الفاعل ونائبه.

وكذلك في حديثه عن ما ومهما وأي قال انها تعرب مفعولا مطلقا اذا دلت على حدث. والصحيح ان تكون نائب مفعول مطلق. ان المفعول المطلق لا يكون الا من جنس الفعل.

صفحة (٥٧) في باب الاسماء المبنية ورد قوله: (هذا ولا ينس القارىء ان المنادى المفرد المعرفة والنكرة المقصودة مبنيان على الفتح دائما) وهذا قصور في التعبير من ثلاث نواح:

١) ان المنادى المفرد المعرفة يشمل كل مابني على ما كان يرفع به قبل النداء سيان في ذلك العلم والنكرة المقصودة؛ لان النداء يخصص النكرة ويعينها فيقربها من المعرفة. واذا كان الامر كذلك فلماذا ذكر الخاص بعد العام ولماذا هذا الاطناب؛ ألم يكن يكفي ذكر المنادى المفرد المعرفة فقط؟

٢) كان أصح لو قيد النكرة المقصودة وقال النكرة المقصودة غير الموصوفة لأنها اذا وصفت انتفى الشرط وانتصبت.

٣) ان قوله «مبنيـــان على الضم» غـــير شامل. الاحرى ان يقال مبنيان على ما كان يرفعان به قبل النداء

لأن الضمة ليست وحدها علامة رفع بل يشركها الواو في جمع المذكر السالم والألف في المثنى. وعليه فليس من الصحيح ان تذكر وحدها.

صفحة (٦١) خطأ في تسمية البحث: الاسم المنون وغير المنون. وهو يقصد الاسم المنصرف وغير المنصرف أو المصروف والممنوع من الصرف. ان تسمية الاستاذ الافغاني فضفاضة اذ تنطبق على المبني والمعرب بالاضافة الى المنصرف وغير المنصرف وكل ماجاء مشتقا من التنون في هذا البحث فهو خطأ. والواجب استعمال (صرف) بدل (نون) ومنع من الصرف بدل منع من التنوين.

اما اعتماده على الشذوذ فقد جعل عمل المصدر المعرف بأل قاعدة مطردة مع ان الامثلة والشواهد على عمله نادرة جدا. وهو غير مستعمل في كتب اللغة فبأي حق يبيح الاستاذ الافغاني لنفسه أن يجعلها قاعدة مطردة. وهل يستطيع ان يذكر بضعة من مثل هذا الشاهد:

ضعيف النكاية اعداءه
يخال الفرار يراخي الأجل.

وكان من الواجب في حديثه عن المصدر العامل صفحة (٧٠) ان يصنف انواعه حسب اطراد عملها بالترتيب التالي:

١) مضافا الى فاعله

٢) مجرداً من أل والاضافة.

٣) محلى بأل على الندرة والشذوذ.

ومثال آخر على جعله من الشذوذ قاعدة مطردة قوله ان (فعيلا) تأخذ مفعولا واستشهد على ذلك بقوله: أرحيم أبوك أطفاله. ولم يستطع أن يجيء بشاهد شعري واحد. وكذلك في وزن (فعيل) و (مفعول) و (مفعال). إن ماورد من ذلك فهو شاذ ولا يقاس عليه.

في باب المرفوع من الاسماء صفحة (٨٣) ورد قوله: وما كان في معنى الصفة المشبهة من الاسماء الجامدة مثل: خالد علقم لقاؤه. فهو يأخذ فاعلا. ف (لقاؤه) في رأي الافغاني فاعل. وهذا تعليل بعيد والاصح الأسلم أن يكون علقم خبراً مقدماً و (لقاؤه) مبتدأ مؤخراً. والجملة الاسمية في محل رفع خبر المبتدأ (خالد). إن الجوامد لاتأخذ فاعلاً.

صفحة (٨٦) ورد قوله :

يجر الفاعل لفظاً على الوجوب في موضع واحد هو صيغة التعجب (اكرم بخالد) فزيادة الباء هنا واجبة . عجيب ! كيف يقبل الاستاذ الافغاني هذه الفرية؟ متى كان الزائـــد واجب الزيادة . ان الوجوب والزيادة لايجتمعان . الوجوب يعني الأصالة . والأصالة والزيادة نقيضان.

وهـذا يحملنا على التطرق إلى أفعل التعجب (افعل به) . قال النحاة إنهـا فعل ماض جاء على صورة الامر . وان الباء زائدة وان مجرورها فاعل محلاً . وهذا فاسد من عدة نواح :

١) لو كانت (أفعل به) فعلاً ماضياً لأستغني عنها بالماضي الصريح الدال على التعجب وهو قياس من كل فعل يصح لنا منه صوغ افعل التعجب على ما أفعله ؛ ثلاثي موجب معلوم غير جامد غير دال على لون او عيب أو حلية قابل للتفاوت . كبرت كلمة تخرج من افواههم . ومادام الفعل الماضي الدال على التعجب موجوداً فما الداعي لاستعمال صيغة اخرى بنفس المعنى !

٢) ان الذين قدروا صيغة (أفعل به) فعلاً ماضياً لم يعتمدوا على أساس ولم يأتوا بالبراهين والادلة التي تثبت قولهم، فليس في اللغة حالة نقيس عليها . واستخراج القواعد انمـــا يكون بالقياس والمقارنة ولا يكون اعتباطاً كما في الحالة هذه .

ان (أفعل به) فعل أمري عادي مبني على السكون وفاعله ضمير مستتر وجوبا تقديره أنت. والباء حرف جر اصلي متعلق بأفعل. والضمير في محل جر بالحرف . ومادام الأمر كذلك فعلينا أن نفسر الجملة تفسيراً يتفق مع الاعراب الذي ذكرت. وبموجب قولنا تكون أبخـــل به تعني (ناد ببخله) وأكرم به ناد بكرمه وانتهت المشكلة . أما لماذا لم يسند هذا الفعل الى غير ضمير الخطاب المفرد المذكر ، فعلة ذلك أن العرب استغنوا بهذا الضمير المفرد عن بقية الضمائر لدلالة المخاطب على الجميع. ومن عادتهم أن يخاطبوا فرداً ويقصدوا به كل من يسمع . وأرى أن هذا هو التخريج الصحيح لهـذه الصيغة . انه يجنبنا المتناقضات .

في بحث نائب الفاعل صفحة (٩٣) ورد قوله في جملة : (وقف لإجلالك) أن المصدر المفهوم من الفعل يقدر نائب فاعل . وقف الوقوف لاجلالك . وهذا كلام ضعيف للأسباب التالية :

١) أنه من أبسط القواعد أن الفعل المجهول لا يصاغ الا من الفعل المتعدي ، مباشرة أو بالحرف . وهذا فعل لازم فكيف يصاغ منه المجهول ؟

٢) أن نائب الفاعل يتقدم على الفعل فيكون مبتدأ . نقول ضرب التلميذ . ثم نقدم نائب الفاعل فنقول: التلميذ ضرب. ويكون الكلام مفيداً لا غبار عليه . ولكن هل يصح لنا أن نقول : الوقوف وقف . وهل هذا كلام له معنى ؟

وقد يسأل سائل : وماذا نقول في بيت الفرزدق :

يغضي حياء ويغضى من مهابته
فما يكلم إلا حين يبتسم

والجواب أن مثل هذا البيت نادر وقليل . وبامكاننا أن نستعيض عن هذا التعليل الملتوي بتعليل آخر وهو أن نقدر شبه جملة محذوفة نعتبرها في محل رفع نائب فاعل . ويكون التقدير هكذا : يغضي حياء ويغضى في حضرته من مهابته . وتكون شبه الجملة المقدرة (في حضرته) في محل رفع نائب فاعل .

وفي نفس البحث ورد قوله : والظرف يجب أن يكون متصرفا مختصا ليصح وقوعه نائب فاعل مثل: احتفل يوم الخميس واصطف أمام القائد . برفع يوم وأمام . وهذا كلام غير مستقيم . اذ لا يجوز ان يكون كل من يوم وامام نائب فاعل مباشرة . انهما منصوبان على الظرفية وفي محل رفع نائب فاعل . هل يصح لنا ان نقول يوم الخميس احتفل . على اعتبار ان (يوم) مبتدأ مرفوع . وهل نحن بحاجة الى هذا التخريج ؟

ورد صفحة (١٥٥) قوله : في (سرني رجوعك سالماً) أن ضمير المخاطب (الكاف) مجرورة لفظاً مرفوعة محلاً . وهذا تناقض غريب . كيف تكون الكاف في محل رفع فاعلا وهي في محل جر مضاف اليه . نقول في اعرابها : وضمير المخاطب المبني على الفتح بناء

عارضا في محل جر مضاف اليه فكيف تكون في نفس الوقت فاعلا . أما ان تكون فاعلا في المعنى فليس له علاقة بالاعراب ولا بالنحو . ولا مجال للافاضة في هذه المسألة فقد أوسعتهـا بحثاً في تعليقي على كتـاب المرجع عدد المعرفة (٣٥ و ٣٦) .

في بحث التمييز ورد قوله عن كم الاستفهامية : هي مفعول مطلق في (كم مرة قرأت درسك) ومفعول فيه في (كم ليلة سهرت) والصحيح أنها في الاولى نائب مفعول مطلق وفي الثانية نائب مفعول فيه .

وورد صفحة (١٩٢) قوله عن الكاف انها تكون اسماً وأورد على ذلك أمثلة وشواهد . ان الكاف لا يمكن ان تكون اسماً للأسباب التالية :

١ – ان مجيء الكاف بهذا الشكل شاذ وضعيف حتى ان بعض النحاة أنكره وقد حمله سيبويه على الندرة والشذوذ ووافقه ابن هشام على رأيه .

٢ – أي اسم هذا الذي يستعصي على التثنية والجمع والتأنيث والتصغير والنسبة والاضافة الى المضمر ، ولا يكون له في مقومات الاسمية نصيب ؟

٣ – ان بامكاننا تخريجها على وجه يبعدها عن الاسمية وهي أن تكون مع مجرورها صفة لاسم محذوف وينتهي الاشكال . ففي قول المتنبي : « وما قتل الاحرار كالعفو عنهم » . يكون التقدير « وما قتل الاحرار شيء كالعفو عنهم » أو « سلاح كالعفو عنهم » . وكذلك « يضحكن عن ثنايا كالبرد المنهم » . ولو احق الاقراب فيهـــا شيء كالمقق . وتنتهي اسطورة اسمية (الكاف) .

وورد صفحة (١٩٤) قوله في اعراب : لست بذاهب . أن ذاهب خبر ليس منع من ظهور الفتحة على آخره اشتغاله بحركة الجر الزائد . واشتغال المحل بالحركة لا يكون الا في مثل ياء المتكلم . أما الاعراب الصحيح فهو أن يكون مجرور ا لفظاً منصوباً محلاً على انه خبر ليس .

الى هنا أضع القلم بعد أن انتهيت من تعليقي على كتاب (الذكرات) متغاضياً عن ذكر عدد من الاخطاء لا يتسع لذكرها المجال وراجياً من الاستاذ الكبير سعيد الافغاني أن يتقبله بصدر رحب وان يعتبره جهداً في خدمة اللغة العربية التي نلتقي على تعزيزها واعلاء شأنها .

كتاب .. الانس

مجموعة من الطوف والنوادر في الفن والادب والشعر والموسيقى والسياسة والتاريخ

لسمير شيخاني

٦٢٥ صفحة من القطع الكبير — منشورات دار السمير للطباعة والنشر .. لبنان

عرض وتحليل محمد منذر لطفي

ياريت فيها تحملك وتروح
ع بلاد ماتقشع حدا فيها
وهونيك شوبدها بأشيا تبوح
وشو عندها حكايات تحكيها

. . .

بهذين البيتين السماويين راحت «فيروز» الحالمة تناجي حبيبها البعيد .. ممنية اياه بالبوح له بأشياء رائعة .. وأشياء ..! وبأنها ستقص على مسامعه من رقيق الحكايا .. وشهي الأحاديث .. الشيء الكثير .. الكثير .. فيما اذا حقق الزمن أمنيتها ومكنها من حمله بعيدا .. بعيدا .. الى بلاد اسطورية الجمال ..! ولكن هذه الحبيبة الولهى لم تدلنا على المصدر الثر الذي ستستقي منه هذه الحكايا .. وهاتيك الأحاديث ، وان كانت قد اشارت اشارة طفيفة الى أن هذا الينبوع الحالم مليء .. بحلو الاشياء .. وأعذب الحكايات .. وأنه لن ينضب في يوم من الايام ..!

وقد ظل هذا الينبوع السحري الذي حدثتنا عنه فيروز في هذه الاغنية سرا بعيد المنال ، الى ان أتيح لي الاطلاع عليه ، والابتراد في مائه الدافق النمير ، ولشد ماكانت دهشتي عظيمة عندما رأيت أن الواقع أحلى من الخيال ..!

لقد أخذ صاحب هذا الينبوع على عاتقه نشر هذه الحكايا الظليلة التي وعدت بها فيروز حبيبها الساحر .. هذه الحكايا التي كانت سرا من الاسرار لوقت قصير لا تبوح بها الا له .. ولكن صاحبنا شيخاني أبى – على مايبدو – أن تبقى مثل هذه الاشياء الجمالية وقفا عليها وعلى حبيبها دون أن يكون للآخرين نصيب منها فبدأ بنشرها واحدة .. واحدة .. ليطلع الرفاق على هذه الحكايات والاحاديث ..

على كتاب الأنس الذي نشره صاحبه في عصر نحن أحوج فيه أكثر من أي وقت مضى الى هذا النوع من الادب المرح ليطرد عنا أشباح السأم والملل التي لازمت انسان هذا العصر بشكل واضح فجعلته مشتتا بين المرح والكآبة .. بين الابتسام والعبوس .. وأخيرا بين التفاؤل والتشاؤم الا من رحم ربك ..!

ان نظرة واحدة الى هذا البستان الوارف الظلال او الى أية روضة من رياضه الغناء تجعلنا ندرك بكل بساطة عظم المهمة التي حققها الزميل شيخاني في كتابه الفريد هذا ، لقد اختصر لنا الزمان والمكان ، فلم تعد هناك أبعاد للعالم تحدد لنا دوله وقاراته ، فالاستاذ شيخاني – كما نعهده – مخرج فنان .. مسرحه الارض .. وأبطاله الموهوبون من أبنائها كافة ، دون النظر الى عامل الجنس أو العرق أو الدين أو اللغة وانما كان القاسم المشترك بينهم لطف النكتة ، وبراعة النادرة ، وحلاوة اللفظ ، ورشاقة الاسلوب ..!

لقد جلنا معه الى واحات من المتع ثرية الظلال .. فتفيأنا جو النكتة الحلوة .. والطرفة الوردي المجنح .. والكلمة المغمسة بفاغم العبير ، لقد أطللنا خلال ساعات قلائل على عوالم جمالية رائعة لم نسمع بها حتى في الخيال ، لقد قطف لنا صاحب الأنس من كل روض زهرة ، فضم « أنسه » كل رائعة في دنيا الملاحة والتندر .. والفكاهة والجمال ..!

لقد جعلنا نؤمن معه في نهاية تلك الرحلة الممتعة أن أعياد الحياة الحقيقة انما هي الظرف والمرح والجمال ..!" واذا علمنا

ان صاحب الأنس قد أوتي ذوقاً مرهفاً في تخير أحلى النوادر وتصيد أشهى الملح والنكات ، يضاف الى ذلك اطلاعه الواسع واسلوبه الناعم الحريري الذي يرتفع به في بعض الاحيان الى مستوى الاشراق..

أقول .. اذا علمنا كل ذلك عرفنا كيف امتلأ بستان « الأنس » بما لذ وطاب من ندي الزهر .. وناضج الثمر ، فأصبح مسرحا للعين .. ومتعة للخيال ..!

لقد ضم الكتاب بين دفتيه الجوانب المشرقة من حياة عدد كبير من صانعي الادب والفن والسياسة والتاريخ في كل عصر ومصر أمثال « شو » و « غوركي » و « تاليران » و « الجاحظ » و « أشعب » و « جحا » و « هوغو » و « وايلد » و « دالي » و « بيكاسو » وغيرهم .. وغيرهم .. فجعلنا نعيش معهم تلك اللحظات الممتعــة من سفر حياتهم الطويل ..!

تلك هي لمحــة موجزة عن هذا الكتاب الممتع ، وكلمة حق أخيرة اقولها بصدد هذا « الأنس » ، لا لأجل أن أقيّم فيه عمل هذا الزميل ، او لأجل ان اضع رقما رياضيا جامدا حذاء اسمه أقدر فيه وزنه وجوهره ومكان مقعده في الصف.. بل لا كون من المخلصين للفكر والادب ولأقول الحقيقة بأبسط صورها .. وهي ان هذا الكتاب القيم قد سد ثغرة واسعة في مكتبتنا العربية التي تفتقر الى الكثير من امثاله وأعتقد ان « فيروز » لن تعدم وسيلة بعد الآن لتملأ خزانتها الوردية بالكحل والعطر وأحمر الشفاه ، بعد ان عرفت كيف تملأ ذاكرتها بكل مستطرف وكل مستملح ، لتحظى وحدها بالحبيب الاسمر .. وتروي له أمتع الحكايات وأعذب الاحاديث فيما اذا حقق الزمن أمنيتها وجعلها تتمكن من حمله بعيدا .. بعيدا .. الى بلاد سحرية الجمال .. لم ترها عين .. ولم تسمع بها أذن ..!

ديوان صلوات للريح

لخليل الخوري

طبع دار الطليعة — لبنان

عرض وتحليل الياس طعمة

- الذين اتهموا الشعر العربي الحديث بالنمطية ، وقالوا انه طفرة تمشقت بسماء الشعر العمودي كغمامة صيف لا تلبث ان تنقشع وتزول .

- الذين وقفوا بالأمس في مهرجان الشعر ودبجوا القصائد الطوال والقوافي الرنانة في هجاء الشعر الحديث .

- الذين اعتلوا المنبر بالأمس القريب يبتهلون الى الله (ان يمحو هذا البلاء وأن يهدي ادباء الشباب عن هذا الالحاد في الأدب العربي الذي يعتبرونه تجديدا) .

- الذين هاجموا حتى الأدب المهجري هذا الادب الحي الذي طعم الأدب العربي بثقافات غربية وشرقية قديمة ، ورفد النهر العربي بتيار قوي من الادب الذي تشتم منه رائحة الحياة وتتنسم فيه صدق التجربة . واليكم ماقاله أحد هؤلاء الدعاة بحق الأدب المهجري ، قال : (ان اسلوبهم لا شيمة فيه للبلاغة وحسن السبك ، صناعته البيانية تزور عن الذوق العربي السليم ، فالأدب المهجري لم يتبلور بعد ولم يتخذ له صورة واضحة المعالم بحيث يفرد له أثر بعيد المدى في تطور الادب العربي المعاصر) .

- الذين تعاموا عن قانون الحياة ، وفاتهم ان الحياة تتطور وأن الأدب معها يتطور لأنه منها ينشأ وعلى أرضها يدرج وفي رحابها تتكون صورته ومضمونه .

هؤلاء وهؤلاء نبذهم المد العربي والقاهم على الشاطيء البعيد نفايات تجتر ماضيها في كسل مقيت ، لأنهم لا يزالون يبحثون في ظلمات القواميس عن قواف جديدة ويسخرون كلهم في ترويـــق المطولات وتزوير الشعور وينتظرون أن تهمي عليهم السماء او تخرج لهم الارض موسم النضال .

الانسان العربي يعيش اليوم حياتـه بكل خصبها وزخمها ونضالها ، وهـذه الحياة مشحونة بقضايا المصير مكهربـة بالمشاعر الحية الثائرة اللاصقة بهذه القضايا المندفعة معها في تيارها الجارف بكل عنفها وجبروتها ، والقضايا المصيرية في كل زمان ومكان تجد من يتقمصها روحا وجسدا ويعيشها بكل طاقاتها وابعادها.

وخليل الخوري واحـد من الذين ارتبطوا بقضية مصير .

يقول ابلوار : (ان على الشاعر ان يشق طريقا واسعـا بل اوسع مايكون لتمجيد الانسان) . فهل استطاع خليل ان يشق هذا الطريق وان يمجـد انسان الجزائر ؟ الحق ان كل قضية مصيرية هي قضية انسانية ، وسنحاول في دراستنـا هذه ان نلقي الضوء على القضية التي نذر لها خليل شعره ، ونستشف من خـلال ذلك تمجيده الحار للانسان وثورته على كل ما من شأنه ان يعيق تقدمه ويحجب عن عينيه نور الشمس .

لقد جسدالشاعر قضيته ـ أعني قضية الجزائر ـ في رموز وأبطال ، ولقدجبل ابطاله من تراب الارض وانفاس الآلهة لأنه ادرك ـ وذلك شرط في مبدئه ـ ان مايولد من رحم الارض تقمطه الشمس وتباركه الآلهة .

فاذا ندت آهة عن أنثى تجالد اصفـاد السجون فانما تند عن إلهة ، واذا صلبتها ايدي العتاة على جذع شجرة فانما هي بروميثيوس مشدودا الى الصخرة يجدف في وجه الاله او هي :

صليب واكليل غار

ونار تسد المسار

فهذا شاعر أدركته ليلة الميلاد وفتاته تعاني مرارة الجوع وذل الاصفاد ويصارع نور عينيها ظلام الاقبية والكهوف ، وفكر ان يهديها هدية الميلاد ، تطلع حواليه فوجد

أرضا جدباء لم تفتح فيها زهرة بيلسان
ولم تزغرد في حقولها سنبلة قمح ولم تحلم في
حضنها الاعمار او تدرج على ارضها الاطيار،
فتح كفيه فلم يجد تبرا او جماناً ولم يخلف
له مجوس الارض مرا او لباناً ولم يجد
غير حروف مغمسة بالدم معطرة بأريج
الرمال .

أكان خليل يدرك أن من لا يشبع
من حرف لا يشبعه خبز العالم ومن لا يسكر
من كلمة لا تسكره كل خمور الارض ..
أكان يؤمن كما آمن قبله فولتير وديدرو
ومونتسكيو أن الحرف هو الطريق وأن
لا طريق بغير الحرف ، فحمل حروفه
الى فتاته التي جسّد فيها قضية ، قضية
الخلاص من نير العذاب والألم والتشرد
والقهر :

ياقضية
أتلناها بأعصابي بخلجي بحياتي
ما الذي أهديك والميلاد آت
زمني شح فما عاد يواتي
لم يفتح بعد مقل البيلسان
ليس في كفي تبر او جمان
لم يخلف لي مجوس الارض مراً او لبان
لم أجد غير حروف عربية
مثل عينيك لها عمق الزمان
وجلال الأبدية

وهو يرى في قضيته مسيحاً جديداً
يعاد صلبه ليكون هناك خلاص جديد ،
ولقد كان المسيح بيديه المسمرتين على
الصليب هو المثال الذي صاغ خليل قضية
على غراره . لقد جسّد المسيح بشخصه
الحياة والموت والبعث ، وجسّد خليل
في قضيته الحياة والموت والبعث :

غير أن الماجد المولود في ليل المغارة
هو أنت البكر ، اصقاع المغارة
يامسيحي ، يارفيق الفجـــر يانور
الطهارة

انثى تنتصب في كبر الزمان صارخة
في صوت مهيب : أيها الناس أريد الحرية
لوطني فلماذا تحاكمونني ، تماماً كما وقف
السيد على الجلجلة وفي ضميره هذه الكلمات:
أيها الناس جئتكم بالخلاص فلماذا تضفرون
لي أكاليل الشوك وتقودونني عارياً .

ثم يلتفت خليل الى جميلة يطمئنها بأن
لا بد لليل من آخر ، ولا بد للريح من

أن تصفع أبواب السجون جارفة أبناء السبايا وجلادي العباد.

وفي هذا المقطع يتبدى لنا اصراره على الصمود والحاحه الشديد على الوقوف بقوة وعزم في وجوه سارقي الحياة من أبناء الحياة :

لم تزل بعد السرايا
تتحدى الليل والموت وأبناء السبايا
لم يزل في القمم الشماء في أوراس ثوار
يخوضون المنايا
لم يزل يشتد عصف الريح ، أشلاء الضحايا
تتهاوى ، وفم الصبح يغني
للسرى ، للنار تحتث الدخان
وترش العنفوان
في عيون الارض ايماناً ، وتحدو ، ياقضية

والاصرار على بلوغ القمة والصمود في الساح حتى النصر ميزة تطبع قصائد الديوان ، ذلك انها تنبع من نفسية الشاعر الذي عاش نضال امته ، مؤمناً بقضيته ، مؤمناً بحقه في الحياة الحرة الكريمة ، واضعاً نصب عينيه تمثال حريته ، فاذا سقط نسر وهو يرود القمة يبث الرمل نسراً آخر :

ولدن يهوي نسر ، نسر يولد
في عينيه لون الثأر الاسود
ونسر هناك ونسر هنا
اذا مات نسر تطاول جسر
ليعبر نحو الخاضة نسر

إنها السيادة التي لا تعرف الرجوع ، ومن جديد نرى أنفسنا أمام الثالوث الذي يؤمن به الشاعر : الحياة والموت والبعث. الموت يخنق روح الحياة ، والحياة تحمل فتيل البعث ، والبعث يهدر في عروق الأرض فيكون الخصب والنماء .

والقد شيد خليل ثالوثه في ثلاثة مقاطع من قصيدته (عربية) ، في المقطع الاول تكون الاثمار التي هي جميلة ـ رمزاً الأمة ، للحياة . وفي المقطع الثاني تقاد الى الصلب والموت ، وفي الثالث تبعث حرة نقية لقاء النهار :

ببسمة
بوقفة كبر بكلمة
تجسد أنثى حقيقة أمة

. . .

صليب واكليل غار
ونار تسد المسار

وجوح رعوف عميق
بسيل فينادي الشروق
وآهة
تند فيهذي الهة

. . .

نفجو عطاء وغوثا
فهذي أيا رمل أنثى
تصوغ لشعبك بعثا

ويعود خليل الى ثالوثه مرة ثانية بشكل واضح في المقطع الاخير من قصيدته (النسر والاصرار) النسر يصر على بلوغ القمة ، ودون القمة يكمن الموت بشبحه ، ولكن ما أهمية الموت مادام البعث يفجر الحياة في عروق الموت ، انها الفكرة التي تدور حول محورها كل قصائد الديوان، انها العقيدة التي تنبض في عروق الشاعر، الامل في الوصول ، الامل في الحرية ، الامل في الحياة ، ولا حياة بدون امل فليس إذن :

لم يأبه ، أسرى ، لم يأبه
ولدن أودى لم ينشج ، لم يطلق آهة
ثم الصخر العاري ، ومع الفجر
هات النسر
كنت الرؤيا في عينيه
فمضى لم يذرف دمعة
يا أم يا أم الدهر
يا أوراسي حتى النصر
ومع الفجر
بعث النسر

ان خليلاً في غمرة انسحاقه ، وفي لحظة تمدده في جرن الاحزان ، وفي انحناءته ـ والهدية ملء يديه ـ امام قضيته ، كبر الزمان وجلال الابدية ، انتصبت جملة امنيه نسراً آخر في قافلة الريادة ، عمرو مضى ومقراني وعمروش ، حكايات تلم به فتنزى حزنا في ضلوعه وتملأ الغصات صدره ، ثم تتحول هذه الغنائية المشجية الى حزن عميق القرار ، الى صلاة في معبد المربح :

ويصلي قلبي الصافي يصلي
ليلة الميلاد ، يصفو في صلاته
عله يأتيك ، يلقاك بأعماق المغارة
عله يسكب ملتاعاً نجاواه المثارة
وحكاياه الحزينة

عله يسكب في معبدك القدسي مشغوفاً
لحونه

ياقضية
ان قلبي مثل عينيك حزين

ويرفد هـــذه الغنائية الشجية في القصيدة مسحة صوفية رومانسية تنبض حارة في نظم انساني تتداح القضية فيه، فاذا هي - بلا حسميات - قضية انسانية شاملة لا تحدها ابعاد ولا يقيدها زمان او مكان ، بل هي ملحمة يندمج فيها الرمز والايحاء والصورة والتعبير في نغمة شعرية حزينة تساور كل نفس وان لم يكن لها مايربطها بهذه القضية .

لقد اكتسبت من الشمولية بحيث اصبحت تصور لا بؤس الجزائر فحسب بل بؤس الانسانية بأسرها ، وحتى جميلة على الرغم من انها ترتبط بالجزائر وهي بطلة في الجزائر اكتسبت اسم مناضلة حرة انسانية يمكن ان تستعار صورة لنضال اي شعب يقارع المعتدين الظالمين ، وان تكون رمزاً لاي قضيه انسانيـة أخرى .

وقصيدة (صلوات الربيع) ملحمة أخرى من ملاحم النضال الانساني ضد قوى الشر والبغي والعدوان ، سكب فيها خليل دم قلبه لأنه وهو يعيش حياته يعيش قضيته ولأن القضية هي (ثورة ذات مضمون فانها وهي تعني انبعاث الانسان العربي تعني اصراره على وجوده وتوكيده معنى هذا الوجود أعني شرطه الانساني اي حريته كانسان) .

ماصلى الشاعر للربيع وما أحرق بخوره في هياكلها وهرق دمه على مذابحها الا لأنه كان يعشق الربيع كما يعشق عمود الصخور وصلابة عود السنديان ، والربيع رمز من الرموز التي جسد فيها الشاعر قضيته ، انها تعني لديه الصمود والاصرار والبعث ، ولقد غناها جميعاً واعطاها دفقاً من روحه ودمه لأنهـا كانت تمثل الانسان الذي يعشقه الشاعر ، الانسان المتمرد على واقعه الثـائر على ركونه وسكونه التواق الى الانعتاق من سجن الظلم والعبودية ، ومن صرخات الآه ورنات الانين المنبعثة من اقبية ماقبلتها شفاه الشمس ولا رفرفت في أجوائهـا أجنحة النسيم ، والتمرد مبدأ في عرف

خليل ، هو يتمرد لأنه انسان وهو إنسان لأنه يتمرد ، انه يعشق الانسان المتمرد الذي يدوس الارض بقدميه ويرفع يديه ليقطف النجوم ويملأ بيادره ،وهل الانسان المتمرد غير ربح تقحم وجه الارض جارفة نفايات الزمان عن موائد الصغار الطيبين زارعة غبار العمى في عيون لصوص يسرقون الكروم بعد ان يشدوا نواطيرها بالقيود .

اما الانسان الذي يرقد مطمئناً في اقبية الذل والهوان وينام ملء جفونه على سلسلة القيود وقرقعة الاصفاد فلا يليق به ان يرى فجر البعث ،او تلمح الشمس اجفانه بل تقتاته الارض ليولد من جديد صارخاً في وجوه جلاديه :

هذا انا ولدت من جديد

انظر : أنا اله الوحي ثرت فوقها

اسطورة العبيد

من يوم أن صرخت لأأريد

لم ينس الشاعر في قصيدته (صلوات الربيع) قضية الجزائر فحسب بل حكى لنا قصة الانسانية ، والانسان على وجه الخصوص ، في مرحه وطفولته وبراءته، ثم في الليل المشوم بداهمه ويغتال امنه ، ثم في الفجر يولد وبالبعث يشرق فاذا الحياة غناء وحداء واذا بنا نعود كما كنا وكما سرنا معاً :

لوداع الشمس في عرس المساء

نفجع الاطيار ، نرتاد مع الوروار

أنهار السماء

يفتتح خليل قصيدته بهذا الموكب الزاخر المتدفق من صور الطفولة ،يشاهد فيها كل انسان نفسه ، ومن هنا كان لهذه القصيدة تلك النغمة الانسانية التي يتنسمها كل قارىء .

هاهي أمامنا صورة الطفولة ،وهاهي فتاته — مع فتاها — تنصب للعصافير المصائد وتتأرجح على اغصان الجوز والصفصاف وتغني مع الاطيار التي تفجعها من اعشاشها وتتهادى مع الرعيان في أعراس الحصاد ، ولأترك الصورة تقدم نفسها بنفسها :

وتهادينـــا مع الراعي ، شهدنا كل

افراح الحصاد

ودرسنـــا السنبل الاسمر ، أوردنا

الخيول المتعبة

وعرفنا لذة الحلم بحضن المصطبة
وهنا ذقنا السهاد
واهتبلنا غفلة الناطور عنا ، فتسلقنا
السياجات المتعبة
وتخاطفنا العناقيد الأنيقة
وانطلقنا خلف أسراب الفراشات
الطليقة

ولم يكتف بصورة واحدة بل يعرض أمامنا شريطاً طفولياً حلواً ويقفز بنا من صورة الى صورة فينتزعنا بقدرة فنان من واقعنا ويسبح بنا في تلك الاجواء المحببة .

العناصر تتحارب في الفضاء والرياح تتلاعب بالابواب المغلقة ، والمطر ينهمر وينهمر كأنه أغنية لا آخر لها ، وقد تمدد الفنان على الحصير مسنداً مرفقيه الى الأرض واضماً راحتيه تحت ذقنه مملءاً بصراً لايريم بوجه جدته العجوز وهي تقص له حكاياها المثيرة :

وهنا حين تلم الناس أماسي الشتاء
كم جلسنا نتسلى بحكايا الجدة الحسناء ،
أحببنا الاثارة
في حكايا شهريار وليالي شهرزاد
فرحلنا في البحار الزرق نحو سندباد
وتحمسنا لجسّاس ، بكينا لكليب ، ونمت
فينا بجادات الامارة

وصورة اخرى حية بحرارتها حارة بحياتها ، صورة الشيخ وعصاه :

وهنا في زحمة الكتاب ، كم ذكرى
عن الشيخ وعن مجد عصاه
كم زحمناه بناديه بخبث : وعلى الشيخ
السلام

ـ وعليكم
كم كذبنا وهو يلقي الدرس او يلقي
السؤال
ـ هل فهمتم ؟
ـ كلنا ياسيدي الشيخ العليم
كلنا والله والله العظيم
غير أنا لم نكن الا صغارا واكاذيب
ودنيا من طلاسم .

الحق ان الانسان يقف عاجزاً عن شرح هذه الصور ، وكل ما استطيع أن اقوله انها الطفولة بكل برائتها وعذوبتها ، بكل تشيطنها وطلاسمها واكاذيبها ، فهذه الالفاظ المكهربة بالانفعالات الحارة المتسربلة برعشة غريبة ، المشحونة

باحساسات الطفولة تنفذ الى أعماق القلب كأنها رنات جرس بعيد يتردد صداها في جوف واد سحيق .

وهذه النغمات الموسيقية المؤثرة تنبع من قلب القصيدة وهذا الحوار يغني الشعور الانساني بدفقات من الانفعال الحي ، ذلك ان التجربة ولدت حارة نقية ، من وجدان الشاعر لا أثر فيها للتصنع ، وانما تشع بهذه الحرقة اللاهبة الى ايام الصبا وتتوهج بالصدق لأنا الذاتية ، لتسبح في اجوائها بكل زخمها واستجاباتها .

ان هذه المقاطع أغنية ، أغنية مفعمة بالشوق والحنين الى مرابع الطفولة ، يتفتح لها القلب وترتعش لها الروح ، وأي نفس لا تتقد شوقا ومحبة عندما تجرفها الذكريات الى ماضيها البعيد البعيد .

وصور الطفولة انما هي صور الامن والطمأنينة ، ولكن الشاعر عرض علينا هذا الشريط لكي يعمق المأساة في نفوسنا ويستدر العطف من قلوبنا عندما نرى الليل يتململ ليغتال المدينة ، والليل عند خليل رمز الظلم والشر والعدوان ، وتستيقظ المدينة وقد تلفع صحبها بالسواد وصوت رهيب زلزل الدنيا :

صاح ان الليل يغتال المدينة
خيم الذعر علينا ، برهة ثم سوى الليل لدينا
أحرق الاعشاب واجتاح السياجات العتيقة ،
لم يخلف عندنا حبة غلة
وردة بيضاء .. فلة

وكان ليل الاستعمار البغيض ، مد زنديه الى الملائكة الصغار يعبث بأعناقهم وهم رقود في غفلة هنيئة ، جرد الكرم من عناقيده ونادى ناطور الكروم:

شده الشيخ والكتاب ، فالكتاب والكرم رماد ووجوم
ثم أفعى فعوا الارض وجوم
لم يدع في الارض عصفورا قطيما راعيا الا عواه

وهنا تحس بالمأساة عميقة مرة ، بعمقها في نفوسنا هذا السيال الشعري الحزين ذلك لأن الشاعر لا يتكلم عن الحزن والألم كشيء مجرد ، ولا يسحب على ابياته طرطشة انفعال ، بل تحس بالحزن يتسع

ويتوهج من هذه الكلمات البسيطة، وكأن المقطع لوحة فنية تقطر خطوطها بالاسى والألم المرير .

ان خليلا هنا يتبتل في حزنه ، وفي ذروة تبتله تسمع حديثه كالنشيج آتمن أعماق بئر عميق :

بعض عـام وسرت ريح من غابات
تدعو الميتين
باسم من أغفى وعيناه على شمس الحياة
هو ذا البعث فهي، زحزحي الليل اللعين
بتنها الأرض الموات

انه البعث ، ثالث الثالوث في مبدأ خليل يهدر في الارض الموات ، ويزرع خميرة التمرد ويدب مرارة الحيـاة في عروق الارض .

انها الريح التي تبعث الحياة في كل مظاهر الحياة ، في الكرم والكتـاب ، في الرماد والطين ، في الارض والميتين ، في النباتات الصغيرة والقبور، في الصمت والنواطير. يحشد خليل كل هذه المظاهر ويغرقها في وجـدانه الملتهب واحساسه المستعر يريد ان يخنق الموت فيها ، فاذا الصمت يزحف غضوبا يزحزح ابواب القبور وصوت يملأ الفضاء (ياوطفاء قومي فاذا وطفاء كا شمس المنيرة) . واذا المارد العربي يتململ، وفي تململه ينتزع السدادة عن فوهة القمقم وينطلق ليرجع الاطفال يغزون الكروم :

يملؤون الحي لعباً وصياحا
يحضن الكروم هوى وطفاء في هـدأة
أمن وفتاها
ويعود الشيخ يزهو بعصاه يتباهى

وفي هذه القصيدة بما تختزنه من لوحات نضالية وانسانية ، لا تخاطب العقل المجرد كما تفعل القصائد الكلاسيكية وانمـا تخاطب الحواس والقلب وتنفـــذ بنغماتها الشجية الى اعمق اعماق الانسان فتـدب فيه رعشة النشوة وحمية النضال .

وكل خطوطها بل كل خطوط قصائد الديوان تتلاقى في محور واحـــد هو القضية ، قضية الانسان في نضاله المرير ضد قوى الشر والطغيان ، قضية بعث يحرق نسل العبيد في دماء البشر ، قضية سيزيف يجالد الصخرة بقوة واصرار الى قمة الجبل ، وبما ان خليلاً يقود رموزه كلها الى النصر كان لا بد له ان يخلق سيزيفا

جديدا لا تفلت الصخرة من بين يديه مرة ثانية بل يشدها الى صـــدره معلنا انتصاره الأخير .

سيزيف القـديم ، سيزيف العبث والسعي الفاشل والجهود الضائعة والرضى بالعذاب كنتيجة محقوقة يجب ان يلقى على جانب الطريق وينبـذ على الشاطىء البعيد ليولد من جديد بروميثيوس آخر يجدف في وجه آلهة الشر .

ولذلك نراه يكبر في سيزيفه الجديد عناده وكبرياءه، ويحثه على السير، الطريق طويل والعثرات تدمي قدميه والاشواك تسد عليه المسار ، ولكنه يصرخ به في عناد واصرار :

تيمم بعطر التراب ، دع الشمس تحرق
عينيك ، مات الجبان
تقحم هنا مدرج الشمس والعنفوان
هنا صخرة الخلد ، مجّد وجودك
بالارجوان
فأنت وأنت تطرق درب الفداء
وتصفع ليل الفناء
تؤنسن معنى الزمان

أجل مات سيزيف القـــديم ، مات الانسان الجبان، مات رمز الجهود الضائعة والعمل المخفق ، مات لأنه رضي بواقعه وظل أبداً يجرجر سلاسله حتى سقط والصخرة على صدره تقهقه له :

سأغتال فيك الدم الاسودا
وسأبعث فيك الدم السيدا
جئت أمحوك شمعة موت بليل المتاحف
جئت أمحوك عاراً وجيل سلاحف

وبعث سيزيف الجديد في قضية خليل يجري في عروقه الدم السيد ، يطرق درب الفداء للاجيال الصاعدة ويصفع الليل بشاعلة تنير الطريق أمام القوى الهادرة، يلتفت الى ابناء قومه يهيب بهم: أن تقدموا، صارخاً في وجوه منكريه :

من قال إني ضائع وحيد
حزني جراحاتي ، بقايا صدأ القيود
أحرقتها صهوتها في لانح الحديد

لقد اتخذ انسان خليل الحديد من ألمه معراجا للخلاص من الالم وجعل من عذابه وقهره صليباً تشده اليه المسامير ، لأنه آمن ان الطريق الوحيد للخلاص

من الألم هو الألم ، وأن بعثه من جديد لن يكون الا اذا حمل صليبه وارتقى قمة الجبل ، ولذلك تراه يعلن ميلاده بقوة وعزم ومضاء بعد ما اذاب عن زنوده صدأ القيود وهرق دمه بخوراً في مجامر الخلاص :

أوقدت من دمي مجامراً ، سفحت مهجتي
وقود أذبت عقمي البليد في لظى الوريد
أنا الجبال سيدي ، أنا الصمود ،
روعة الصمود
أنا الزنود السمر في شوامخ الجرود
دفء التراب ، روح كل ذرة نام على
عناقها شهيد
هذا أنا ولدت من جديد

وبعد بقيت كلمة نقولها في صورة التعبير التي صب فيها خليل هذه المضامين الانسانية الرائعة ، ولي ان اقول : ان هذه الصلوات مكهربة بالمشاعر الحلوة والاحاسيس النابضة التي يصعب على القارىء ان يروي ظمأه منها — رغم ان صاحبها قد ارتبط بقضية مصير كان من الممكن ان تجره الى جفاف الفكر ولغة الخطابة — ذلك ان خليلاً لم يصدر شعره عن قاعدة فكرية بل كان الرمز هو المتكأ الذي استند اليه شعره ، وهذا هو الفن ، الفن الذي يؤثر في النفس بما يثيره لا بما يشرحه ويحلله .

وشاعرية خليل خلاقة مبدعة تفوح من شعره انفاسه وحده لا أنفاس سواه وفي هذا دليل على انه من الرواد .



المحمومون ..

تأليف محمد الراشد
عرض ونقد اسكندر لوقا

مضت عدة شهور على صدور رواية (المحمومون) لمؤلفها الاستاذ محمد الراشد. ورغم ان هذه الرواية تستحق شيئاً من العناية لاثارتها عددا من النقط ذات الدلالة العميقة حول الرواية السورية، الا ان صدورها قوبل بما يشبه الصمت . ولم يكن ذلك فيما اعتقد، لسبب خارج عن طبيعة الرواية نفسها .

عرّف المؤلف روايته بهذه العبارات : انها درس تحليلي لازمة الجيل العربي ازاء المشكلات النفسية والعاطفية والحضارية .

في حين قال عنها (الاديب الشاعر) عبد الاله يحيى : انها بحق ملحمة الضياع الانساني في دوامات وهمية الحضارات المتكسة في العالم الحديث !

اما الدكتور شكيب الجابري فقد عرّفها بقوله : انها تصوير بارع لمأساة الواقع العربي .

واكتفى الشاعر السعودي (احمد

الرواس) بالقول : انني لا اريد التحدث عن الابعاد العظيمة التي تعتبر فتحاجديدا في عالم الفكر العربي .. الخ .

هذه الاقوال في جملتها ، بالاضافة الى تعريف المؤلف نفسه ، تجعلنا نقف من الرواية موقفا خاصا . ذلك بان الحركة القصصية والروائية في سورية ، وان تك لا تفتقد الآثار الجيدة في هذا الاطار من المؤلفات ، الا انها مع ذلك تحتاج الى (الرواية الحدث) و (القصة الحدث) و (الفكر الحدث) . وهكذافان الريادة في هذا المضمار مطلب ثقافي ، بل انها الامل المنتظر . وطبيعي ان يهتم المتتبع للحركة الادبية في هذا البلد بالاثر ، اي اثر ، يقدم اليه على طبق من الاقوال المثيرة ومنها تلك العبارات التي نقلتها حرفيا عن غلافي الكتاب الاول والاخير .

تقع رواية (المهمومون) في ثلاثمئة وثماني عشرة صفحة من القطع الكبير ، وتلخص قصة حب بين شاب من حلب الشهباء (غسان) وصبية من بغداد (أمية) وعبر الاحداث العديدة التي تبدأ في مستشفى اوغاريت (حيث نزلت أمية لتعالج مرضا في قلبها) وتنتهي بسفرها الفاجيء مع والديها عائدة الى بغداد ، تزدحم الصفحات الثلاثمئة والثماني عشرة بعدد آخر من القصص اهمها المؤامرة التي تحاك ضد (غسان) وصاحبه الطبيب (هنانو) والتي يخطط لها كل من الدكتور (ليون) والدكتورة (فاطمة الزهراوي) وكذلك انغماس (غسان) في بعض التجارب الجنسية مع (وفاء) زوجة احد كبار الشخصيات في المجتمع ، ومع (سعاد) احدى عشيقاته ، في حين نستقصي بعض العلاقات الجنسية او العاطفية القديمة له مع نساء اخريات ومنهن (نينوى) التي تصبح فيما بعد زوجة لاحد اصدقاء غسان (نبيل سليم الخوري) اثر تخرج هذا الاخير من كلية الحقوق وممارسته لمهنة المحاماة .

ولا تخلو الرواية ايضا من بعض الايماءات الى علاقات عاطفية اخرى قائمة بين عدد من شخوصها ، من ذلك مثلا علاقة (فاطمة الزهراوي) مع (ليون) وكذلك علاقة (احمد نصري) الممرض

في المستشفى مع (وداد حنا طمين) الممرضة الليلية في المستشفى نفسه .

حتى (سوسن) التي تعمل خادمة في بيت الدكتور (هنانو) كادت تغرق في علاقة مشبوهة مع (غسان) ذات مرة ، الا ان ظهور سيدها فجأة منع الصورة من الاكتمال ، لسوء الحظ !

أما قصة الحب الاول والتي تشكل بحد ذاتها محور الرواية ، فقد نشأت بعد الاستعانة بغسان في عملية انقاذ او تمهيد نفسي ، ان صح التعبير ، قبل اجراء العملية الجراحية في قلب المريضة القادمة من بغداد (امية) برفقة والدها الرأسمالي (محمود شمس الدين) ووالدتها الجميلة واختها (زنوبيا) الفادة السمراء التي تحب الجدل الفكري والفلسفة . وقدمت الاستعانة (بغسان)وهو موظف اداري يعمل في مستشفى اوغاريت ، وكانت الغاية من ذلك ، فيما احسب ، توسيع رقعة الامل امام المريضة ، حيث يمكن بواسطة الحب وحده ان تتم المعجزة اثناء وبعد اجراء العملية الخطيرة . الحب سيقنع (امية) بان الحياة جميلة وتستحق التضحية ، ولابد ان يجسد (غسان) هذه الحياة بشخصه في عيني المريضة .

لقد ثارت المتاعب في وجه هذه التجربة ، ومن ذلك تآمر (ليون — فاطمة الزهراوي) وحتى الدكتور (نجيب اسماعيل) اخصائي التوليد في المستشفى . الا ان التجربة انتصرت ، وتكلل هذا الانتصار بنجاح العملية من جهة ، ومن جهة اخرى بجعل الدكتور (هنانو) و (غسان) عضوين في لجنة خماسية لادارة المستشفى الى جانب كل من الدكاترة ليون وفاطمة ونجيب ، وذلك بعد ان فشل هؤلاء الثلاثة في تآمرهم ضدهما .

هذه الاحداث المعقدة المتشابكة ، والتي تبدو احياناً بسبب انقطاعها المفاجيء كحشر مشاهد لا علاقة لها بصلب الرواية ، كمشاهد الخلوات الجنسية وتداعي الصور الذهنية لرسم خلفية لا تمت بصلة ما الى الماضي ، كل هذه الاحداث لا تفسر شيئاً عما جاء في تعريف المؤلف لروايته ، او في اقوال السادة الجابري ويحيى وزواس (والاديب العالم الدكتور) محمد يحيى

الهاشمي الذي لخص الموقف بهذه العبارات: ابتلي العالم العربي اليوم بثلاثة أنواع من الشباب ، شاب قلق يتأرجح بين قديم لا يتفاعل معه وحاضر لا يجيد الاقتباس منه، وآخر مجامل متملق اضاع شخصيته ، وثالث هاجر او هو في طريق الهجرة . من اجل ذلك رحب بصديقنا الاستاذ الراشد الذي يعالج مشاكل الجيل بضرب من التوتر السامي في (المهمومون) .

ولقد حاولت جاداً ، ورغم الصعوبة التي تعترض قراءة الرواية ، ان اقف على جانب ولو باهت من (مشاكل الجيل) او (مأساة الواقع العربي) او (ملحمة الضياع الانساني) او (الابعاد العظيمة التي تعتبر فتحا جديدا في عالم الفكر العربي) فما وجدته . فالرواية مليئة بالمواقف التي تستدعي البحث عن (الاسس العلمية) التي جعلت المؤلف يستخدم (غسانا) عنصرا في تجربة نفسية معقولة من حيث المبدأ ، وكذلك الحوار الذي ينبغي ان نقرأه لنتعرف على جوانب تلك الاسس عندما تقرر القيام باقناع والدي المريضة في المستشفى بالتجربة . كما انها مليئة بالاخطاء التي لا يمكن ان يبررها القول (لقد حدثت سهواً بعض الاخطاء المطبعية الطفيفة) . وكذلك فان اغراق المؤلف في البحث عن الكلمات غير المفهومة وأكاد اقول العويصة، وتكرار المعاني والصفات اللاصقة بالكلمات المطروحة هنا وهناك ، كل ذلك اضفى على الرواية ثقلا فكريا او وجدانيا او حضاريا يحول دون متابعة قراءتها من الصفحات الاولى .

خذ مثلا هذه العبارة التي وردت في الصفحة الاولى من الرواية : انتمر ـ م شعور داخلي بترابط عميق مع الانفاس المبهورة التي لاشي بهويتها ، منساحا مع تناغمها الموسيقي المذب الذي يجتاح كيانه حتى الجذور . واخترقت الاجواء الملائكية الموشاة باللحن الذي لا يفهم . اللحن الذي يشده ابدا الى المثول في حضرة الذهول النشوان ..

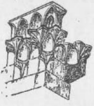
انها ـ بشرفي ـ واحدة من عشرات العبارات التي تقطع مشاهد الرواية وتحول دون انسياب احداثها في غربال الفكر .

مثال آخر ان شئت المزيد : انطوى هنانو متغمرا في آفاق السطور.. السطور التي تحكي اسطورة الفراشة السارقة في محيط خمري ممتق .. سطور وخطها ليل الامس في ريش جناحه الديد . . الجناح الذي لاينتهي ولايضمحل . انـه يعوم ويعوم في بيد لاقفر فيها ، ويغوص في بحار تبخرت امواهها ويصمد جبالالاتربـــة ولاصخور عليها ، ويتدحرج على سهوب وسهول ووديان من الالماس . . توطرها مياه من كوثر . انه يعوم ويقرأ فيغرق ثم يقرأ فيغرق فيعوم .

تأمل هذه المعادلة الرياضية ، اعـني الجملة الاخيرة التي تختتم عبارة مطولة عن حالة الدكتور (هنانو) الذي يستمد لقراءة صفحات من ذكريات (غسان) ، فماذا تراك تنتظر عندما يمضي في قراءة الصفحات؟

ولكن مهما يقال في هذه الرواية فانه خير من الصمت الذي قوبلت به . وهذا هو رأي المؤلف نفسه على أي حال .

قد تكون رواية (المحمومون) ظاهرة فريدة في ادبنا الروائي ، وقد يكون مؤلفها نفسه تلك الظاهرة . هذا وحده نحترم الجهد الذي بذل في اخراجها الى حيّز الوجود ، مع القناعة بأن اي جديد يخلو من عمق التجربة الفنيـة لايمكن ان يشكل انعطافا في تيار الرتابة التي يصطبغ بها ادبنا القصصي عموما .



مع يوم المسرح العالمي

نص الكلمة التي القاها – على احد المسارح – المدير العام لليونسكو رينه ماهو René Maheu ، بمناسبة يوم المسرح العالمي

ترجمها عن الفرنسية حنين حاصباني

على هذا المسرح ، وهو مكان كل شيء فيه رمز ، اذ ليس فيه شيء حقيقي . على هذا المسرح يبدو كل شيء ممكناً لان كل شيء غير واقع وغير حقيقي . كل امر يبدو هنا ممكناً ، ورائعاً . معقولا كان ام غير معقول .

هنـــا (وهنا تعني كل مكان) وفي هذا المساء (وهذا المساء تعني كل مساء) تستطيع كل رغبة ، وكل نزوة أن تختار مايحلو لها . فالدنيا كلها تعرض امامها . الدنيا والتاريخ وغداً وأمس ، قصص اليوم وقصص الأمس . وقصص ما لن يأتي قط .

لذلك احيي فيك ايها المسرح حلم الناس جميعهم ، حلم الدنيا بكاملها . فأنت اعجوبة . وانت سحر ، وسراب . لأن العيون المسحورة ، والآذان المأسورة ، ترى فيك وتسمع ، كيف

يولد الوهم والخيال . وكيف تتجاوب معها القلوب ، وتنتشي غبطة وتحتدم حماساً . فما اعظم سلطانك ايها المسرح: روعة مآسيك ، ضحكة مهازلك ، وماتبعثه قصصك من ضطراب في النفوس وخلجات في الافئدة . كل هذا ينبعث بالاتصال المباشر . كل توهم على المسرح يدخل في روع المشاهدين ، فيتحول الوهم في نفوسهم عقيدة وايماناً . لذلك يخطىء من يسمي المسرح تمثيلا ... انه مشاركة وإلا ما كان شيئاً قط .

وما اعجب هذا الاشتراك الشعوري الذي يخلقه المسرح في الناس ، متجاوزاً الخلافات والحدود والفواصل التي في طبيعة المجتمع ، بل في طبيعة الثقافة نفسها . لذلك نرى الجمهور في المسرح، بخلاف غيره ، جمهوراً متجانساً متشاركاً ، وليس مجموعة افراد كل منهم وحدة قائمة بذاتها ، وانما هو كيان واحد ؛ طائفة واحدة تبحث عن روحها . فاذا لقيتها يوماً ، تشبثت بها ولم تتخل عنها قط .. ولذلك يكون الاخراج على خشبة المسرح ، هو عند الرواد في القاعة ، اخراج ، واظهار ، للاخوة الانسانية .

ثم يأتي دور اللغة . وهو دور هام جداً . لأن اللغة هي التفكير . ولأن الاقوال والتعابير تستحوذ على الأصوات والوجوه الاكثر تعبيراً . وتستعملها لكي تجعلنا نرى ، ونحن في ملأ من الناس ، اسرار نفوسنا الدفينة .

وهذه الالفاظ ، ما اعظمها .. انها كائنات حية ، كائنات متجسدة ، تنفث الروح في الاجساد الواهنة السريعة العطب الرائعة الجمال ، وتقودها عبر المعارك والاهوال والاغراءات والبراهين والحجج ، والفخاخ والمصائد ! حتى تصل بها الى السيطرة والنصر او تنتهي بها الى التلاشي والزوال ، فاما يظفر الحب أو يموت ، اما يظفر المجد أو يزول ، كل ذلك في اطار من الروعة أو الاعجاب أو الشفقة أو السخرية أو السخافة أو منها جميعاً متمازجة .

فيا أيتها الالفاظ . إنك تثيرين الرؤيا وتوضحينها . فتجعلينني أفهم فوق ما أرى . وبفضلك أنت أفكر في ما أعتقد

واكون حكماً عليه او حكماً له .

وبفضلك أنت ساغادر هذه القاعة ، قاعة المسرح ، قاعة الاوهام والرؤى والخيال ، أغادرها وأنا احمل منها معنى لحياتي حياة الحقيقة والواقع .

وفي هذا اليوم الدولي الخامس للمسرح ، تتشرف منظمة اليونسكو بأن تحيي المسرح وعظمته ، وشيوعه ، وصفته العالمية ، وشبابه الدائم .

وانتم جميعاً . ايها المؤلفون والكتاب، أيها المخرجون والممثلون . ياأهل المسرح جميعكم . ياأهل الحل والترحال، يسعدني ان اعبر لكم ، باسم المنظمة الدولية للثقافة والعلوم ، عن اعجاب الجمهور وتقديره لكم . وكل ما اتمنى لكم هو ان تكونوا على الدوام أهلا لاعجابه وتقديره وحبه ، وألا تنسوا ابداً كرامة فنكم وعظمته . انه فن رائع ذاك الذي يعطيكم المقدرة على ابكاء الناس واضحاكهم ، على تفجير دمعهم وبعث البسمة على شفاههم .



- معرض مركز الفنون التشكيلية بدمشق
- معرض جمعية أصدقاء الفن
- معرض الفن المكسيكي

يقدمها غازي الخالدي

معرض مركز الفنون التشكيلية :

دمشق

عندما نناقش معرض طلاب مراكز الفنون التشكيلية لا نناقشه كما نناقش اعمال معرض الخريف او الربيع . فالمهم في اعمال المراكز ان تكون ذات طابع تعليمي منهجي ، ولا يمكن النظر اليها الا من هذه الزاوية ، وعلى هذا الاساس لا يجوز دراستها من خلال اعمال الفنانين المحترفين او من خلال اتجاهات فنية قائمة في العالم ، او من خلال اساليب تقنية معينة .

والذي يمكن ملاحظته من خلال المعارض التي اقيمت في مركز الفنون التشكيلية بدمشق ، ومن رؤيتي لكثير من اعمال طلاب المراكز التشكيلية في المحافظات :

اولاً : هناك عدد من الطلاب يمارسون اعمالهم ، والتأثيرات الفنية المختلفة تتقاذفهم من تجربة الى اخرى لدرجة ان بعضهم لا يكاد يستقر على منهج او اسلوب معين .

ثانياً : قد يعجب الطالب بأسلوب استاذ معين له ، فيسير في هذا الخط حتى يصبح

في النهاية نسخة - غير كاملة - عن استاذه.

ثالثاً : ان بريق الالوان الزيتية وشدة اغرائها قـــد توقف البعض عن تكرار شكليات اللون وبريقه الجميل دون مراعاة لطبيعة خامة الزيت وتكنولوجيته .

رابعاً : قـد يظن بعض الطلاب من خلال الكتب او من خلال لوحات معروفة لاستاذهم ان اللمسة هي كل شيء في العمل الفني ، لذلك يتسابق البعض في طريقة وضع اللمسات العريضة بالفرشاة محاولين محاكاة لوحة او اسلوب معين ، ناسين ان التكنيك هو مرحلة شكلية وشخصية ، وليست جوهر الفن على الاطلاق .

خامساً : قد يستغرق بعض الطلاب في دراسة (موديل) ما ، فيهملون الارضية المحيطة به ، ظناً منهم ان اللوحة هي في رسم الوجه فقط او في رسم التفاح فقط ، او الآنية فقط ، وبقدر مايعطون اهمية للوجه او الشكل المطلوب بقـدر مايصلون الى العمل الفني الجيد ، وهـذا بالطبع خطأ فادح لأن اللوحة وحدة كاملة ، ونسيج متماسك ، كل جزء فيه لا يقل اهمية عن الجزء الآخر .

سادساً : من الملاحظ ايضاً ان الطالب عندما يبدأ الرسم بالفحم مثلاً ، يتعجل بشكل واضح المرحلة التي سيلون بها بالزيت ، لذلك نرى الاخطاء الكثيرة في فهم التشريح ، او النسب ، او التكوين ، وهذا دليل على ان اساس الرسم قبل اللون لم يصل الى مرحلة النضوج .

سابعاً : ان مشكلة اللون ليست مشكلة عادية ، يمكن تجاوزها بهذه البساطة التي يتصورها طالب المركز ، لذلك نراه يلون وكأنه يريد ان يغطي كل اجزاء اللوحة باسرع ما يمكن وبشكل اعتباطي .

فتفقد اللوحة اهم عنصر في اللون وهو الاحساس بالدرجة Ton ، اي الاحساس بالفروق الاساسية بين درجات اللون نفسه ، وبين علاقة هذه الدرجات مع اللون الذي يجاوره .

ثامناً : مشكلة « الكتلة » Forme انهم يعالجو هـذه الشكلة في كل اجزاء الصورة على نمط واحد ، دون الانتباه الى ان الكتلة لها طبيعة خاصـــة تختلف باختلاف الخامة التي تمثلها ، فكتلة الوجه لا تعالج كما تعالج كتلة الجسم ، وكتلة

الآنية النحاسية لا تعالج بنفس الطريقة التي تعالج بها كتلة من الفخار .

تاسعاً : يلاحظ ان بعض الطلاب ـ لشدة استغراقهم في دراسة اجزاء معينة يظنونها هامة في اللوحة ـ يقعون في تفكك عام بين اجزاء اللوحة الاخرى ، اذ تفقد اللوحة الهارموني اللوني الذي يطالب من طالب الفنون بالدرجة الاولى .

عاشراً : فى محاولات النحت يبدو الطالب وكأنه جزء من استاذه ، اولا



من اعمال مركز الفنون التشكيلية بدمشق ـ لها بيرقدار

بعض الشطحات الخاصة التي يحاول فيها البعض الخروج من تعاليم المدرس الحرفية، مع العلم ان النحت متقدم على التصوير والحفر في معرض مركز الفنون التشكيلية بدمشق .

ونحن هنا لانريد ان نقف من اعمال هؤلاء الطلاب موقف الناقد الذي يريد ان يبين جدية هذه الاعمال او عـــدم جديتها ، اذ أن من المفروض ان تكون كلها جدية لانها كما قلت تتسم بطابع تعليمي ، ولا يمكن محاسبتها على اساس انها اعمال فنية قائمة بذاتها ، ومن اجل هذا بالذات لابد من الحديث بصراحة عن الاسلوب المتبع في تعليم الفن في هذه المراكز ، وما هي الخطـــوات العملية الواجب اتباعها - برأيي - لتعطي انتاجاً جيداً لصفة التعليم المنهجي الفني الصحيح.

أولاً :

ان مشكلة الرسم هي المشكلة الاولى والاساسية في تعلم الفن ، والرسم يجب ان يكون اولا بالقلم الرصاص ، وذلك لفهم وهضم المشاكل التالية :

١ - وضع الشكل في الورقـــة ، وضبط النسب السليمة بين وحـدات الشكل سواء في رسم الطبيعة الصامتة ، أو المناظر او الاشخاص ، أو أي شيء من معطيات الطبيعة .

٢ - التشريح ، وهـذا مهم جداً بالنسبة لكل شيء. فالخشب تشريح خاص به مرتبط بتفاصيل علمية مختلفـة ذات علاقة بالعظام وبالعضلات بشكل خاص .

٣ - طبيعة الخامات : فالحرير لايرسم بنفس الطريقة التي يرسم بهـا القطن ، والفخار لايعالج بنفس الاسلوب الذي يعالج به الخزف ، وطبيعة الخامـة هذه لابد من تحسسها بطريقة اللون الواحد وهو الاسـود ، وبالقلم الرصاص بالذات ، لانه خامة صعبة وذات امكانيات متعددة ، وتجبر الطالب على جدية معينة في الرسم ، أما الفحم فهو خامة مرنة يتصور الطالب انه يصـل من خلالهـا الى نتائج سريعة ومرضية .

٤ - متانة الخطوط : وهذا ما الح عليه دافيد وانجر حين قالا : « ان الرسم هو شرف الفن ، وان الخط هو اساس فن التصوير »، ومتانة الخطوط التي تحصر

الاشكال وتحدد ملامحها الخارجية لا يمكن أن تأتي دقيقة وجيدة الا اذا استعمل الطالب القلم الرصاص، فقلم الرصاص لا يدع للطالب اي مجال للهرب او الاهمال في اي جزء من اللوحة ، وبرأيي ان قلم الرصاص هو المعلم الاول الحقيقي الجدي للرسم .

٥ – عندما يبدأ الطـــالب برسم الاشكال التي امامه بالقلم الرصاص فانـه سيضطر حتماً الى ترجمة الالوان التي امامه الى درجات عديدة باللون الاســـود والرمادي والرمادي المخفف التي يعطيها القلم الرصاص ، وهكذا نصل الى ناحية هامة جداً وهي التحسس بالالوان المختلفة وترجمتها الى درجات من خلال لون واحد وهو الاسود .

وكذلك التحسس بالخامات المختلفة في الطبيعة ونقلها بحساسية خاصة ايضاً باللمسة الرقيقة الحذرة التي يستعملها الطالب بالقلم الرصاص .

٦ التكوين وهو مرحلة هامة في العمل الفني ، فاذا لم يدركها الطالب بالقلم الرصاص لا يمكن ان يدركها بالالوان ، فالتكوين هو الهيكل العظمي الاساسي الذي يكسى بالالوان فيما بعد .

ثانياً :

بالنسبة للالوان الزيتية فلابد ان تبدأ بالطبيعة الصامتة وتبتعد مبدئياً عن رسم الاشخاص او المناظر الطبيعية وذلك لحل المشاكل التالية :

١ – قيمة اللون بحد ذاته ، فلكل لون قيمة خاصة به ، وتأتي هذه القيمة من خلال تجربة الطالب الشخصية وطريقة مزجه الالوان مع بعضها واختيار الالوان التي تتعامل مع بعضها دون ان تقتل بعض الالوان الجانبية او فعالية اللون الآخر ، وعلى سبيل المثال لا بد من التنبيه أن بعض الوان تتأكسد مع بعضها وتقتل طاقات غيرها فالازرق البروسي لا يتعامل بشكل مباشر مع العنابي Ocrejaune أو الاصفر النابولي لا يتعامل مباشرة مع اللون الاسود.. وهكذا لابد من شرح ذلك عن طريق محاضرات في تكنولوجيا اللون من خلال تجارب مبسطة في الطبيعة الصامتة. وبالمناسبة فاني اعتبر رسم الطبيعة الصامتة مدرسة كاملة لحل مشاكل الالوان الزيتية .

٢ — الدرجات اللونية : انــه من الصعب على الطالب ان يدرك ان اللون الواحد يمكن ان يأتي منه أكثر من مئة درجة لونية ، لذلك فرسم الآنية أو التفاحة او الابريق ليس عملا سهلا كما يتبادر الذهن لاول مرة، فلابد من تصيّد درجات اللون الواحد نفسه ،وتتبع هذه الدرجات من خلال الاشكال الموجودة امام الطالب . ومقارنة درجات اللون الواحد مع درجات اللون الذي يجاوره بحيث يبقى الانسجام كاملا بين حرارة الدرجة نفسها وتعايشها مع الدرجة التي تليها .

٣ — حل مشكلة الكتلة في اللون :
وهذه ايضاً مشكلة صعبة ، وكثير من الفنانين المحترفين يقعون في متاعب طويلة وهم يحاولون اظهار الكتلة عن طريق اللون ، فعندما يستغرق الطالب في بحثه اللوني يجد نفسه وقد ضاعت منه كتلة الشيء ، وهذا الامر بحاجة الى تجربة طويلة على الطبيعة الصامتة بالذات خاصة اذا كانت متنوعة الاشكال والخامات ، وبشكل خاص اكثر ،المكعبات الهندسية الخشبية ذات الالوان الحيادية كالابيض والرمادي والاسود ، فان دراسة هذه الاشكال تمطي الطالب قوة وخبرة في فهم الكتلة من خلال اللون .

٤ — الوحدة اللونية (الهارموني):
وهذا لا يمكن ان يأتي بشكل اعتباطي اوعفوي ، انما يأتي عن طريق الوعي الكامل اثناء ممارسة التجربة نفسها بحيث يجب أن تكون هناك رقابة دائمة من داخل الفنان على احساسه ، حتى لا يختلط مع بعض الالوان او مع بعض اجزاء اللوحة فينسى ارتباطه بالاجزاء الاخرى اوبالالوان الاخرى ، والطبيعة الصامتة باعتبارها ثابتـــة وواضحة وجاهزة تساعد كثيراً على حل هذه المشكلة .

واخيراً : .. المهم في كل ذلك ان تنتزع من عقلية طلاب مراكز الفنون التشكيلية انهم يعملون فناً ، أو انهم سينافسون كلية الفنون ، او انهم سيقفون مع الفنانين في معارض الخريف اوالربيع بل يجب زرع روح البحث عندهم ، انهم يتعلمون الفن ، ولا ينتجون فناً !

وليس المطلوب منهم الآن ان يقدموا

اعمالا كاملة جيدة ، إنما المطلوب منهم ان يقدموا تجارب فيها ابحاث ، فيها محاولات للوصول الى عمل مدروس على اسس علمية منهجية سليمة .

ومن اجل هذا ايضا لا بد من اعادة النظر في المناهـج التي وضعت لمراكز الفنون التشكيلية في سورية ، اذ لا بد من وضع مادة قلم الرصاص في الطليعة ، ورسم النماذج الخشبية كالموشور والمكعب والهرم ، والنماذج الجصية المبسطة كالاذن والانف والعين والفم واليد .

ثم في المرحلة الثانية ، بعد ان يتأكد المدرس من هضم الطالب لمرحلة الدراسة الرصاصية ، يبدأ شيئاً فشيئاً بالالوان على اساس دراسة الطبيعة الصامتة فقط ، اما المناظر الطبيعية ورسم الاشخاص فيجب ان تترك للاشهر الاخيرة من السنة الثانية للطالب في المركز .

ولا بد بالتالي من تدريس التشريح بشكل جدي اكثر ، وكذلك مادة التكنولوجيا فهي مادة هامـة واساسية جداً . ولا بد كذلك من محاضرات في تحليل الاعمال العالمية من ناحية التكوين والخط واللون والتعلم من هذه الاعمال لا بمجرد مناقشتها .

معرض جمعية اصدقاء الفن

(المركز الثقافي العربي دمشق)

تكاد تكون هذه الجمعية من انشط التجمعات الفنية في بلادنا ، ولعل نشاطها هذا جعل الانظار تتجه اليها في اكثر من مناسبة ، خاصة وانها تقيم معرضاً لاعمال اعضائها كل ستة اشهر بشكل منتظم .

واعمال هذه الجمعية تعتمد على مجموعة من الهواة يمارسون اعمالهم الفنيـة في اوقات فراغهم فمنهم الطالب ومنهم الموظف ومنهم العامل ..

وعلى هذا الاساس يمكن النظر الى اعمالهم على انهـا محاولات شخصية وتجارب فردية ضمن نطاق تجمع له صفة الهواية الفنية .

ومن الملاحظ ايضاً ان اكثرهم قد مارس الرسم في مركز الفنون التشكيلية وهذا بالفعل احد الميزات الاساسيـــة لمراكز الفنيـة التي تكون النواة الاساسية لتجمع الخريجين بعد دراستهم

ومحاولة استمرارهم في درب الفن الطويل.

قد تتشابه المشاكل الفنية التي تواجه اعضاء هذه الجمعية مع المشاكل التي تواجه طلاب مراكز الفنون التشكيلية من ناحية النظر الى الطبيعة ، ومن ناحية المعالجة .

الا ان مجال هذه الجمعية اوسع قليلاً



لوحة حطام
لزياد شاهين (جمعية اصدقاء الفن)

من مجال المراكز باعتبار ان اكثرهم قد تخرج من الفنون التشكيلية .

ان الظاهرة الاساسية في اعمال هذه الجمعيـة انهم يتصورون ان الفن هو في رسم الطبيعة و الطبيعة الصامتـة او الاشخاص فقط . . وبهذا يتجاوزون وظيفة الفن الاولى وبتجاهلونها . .

ان وظيفة الفن هي الانسان مضافا الى الطبيعة ، بمعنى ان يكون للرسام رأي خاص فيما يرى وهذا الرأي في الفن يعني الحلول التشكيلية التي يبدعها الفنان فيعيد رؤيته للطبيعة ويعيد تشكيلها من جديد حسب التكوين الذي يبنيه .

الفن هو عملية ابداع وليس عملية نقل ، الفن اعادة بناء وليس رسم البناء الموجود !

واخواننا في الجمعية يتسابقون لرسم الطبيعـــة كما هي .. الا بعضهم بالطبع من الذين يحاولون ترجمة المعطيات الطبيعية الى علاقات تشكيلية خاصة بهم .

ومنهم على سبيل المثال : بطرس خازم في لوحته « بداية فصل » ولمياء شملان في لوحتها « طبيعة صامتة » ففي هذه اللوحة

بالذات احساس غني باللون ، وفهم كبير لطبيعة اللون الزيتي ، وبالتالي لا ينقصها حبكة التكوين . وكذلك وجيه مدور في لوحته « قوارب » فقد حاول ان يخلق من غنائية اللون الاخضر علاقات تشكيلية الى حد ما ، وكذلك ملك مطر في لوحتها « الليل والقمر » فقد لجأت الى التبسيط الزخرفي بتحوير المنظر الطبيعي الى تكوين فني جميل ، وكذلك ناجي عبيد الذي قدم تجربة فريدة بالنسبة للجمعية فقد عرض تجارب خاصة به مزيجة من الفن الاسلامي باسلوب بدائي (Primitif) مع الوان شرقية بحتة مزخرفة باسلوب خاص به .

ان اهم شيء في الجمعية هو الجدية والمثابرة المستمرة على الانتاج ، بقي ان يعاد النظر في طريقة تناول الموضوعات وفي طريقة معالجتها .. حتى تأخذ هذه الجمعية مكانها في الحركة الفنية العربية في سورية ، وحتى تتبلور تجربتها لتكون نواة لتجمع فني استمر اربع سنوات بلا كلل او ملل ، قد يشمل في المستقبل اعضاء من كلية الفنون الجميلة .

معرض الفن المكسيكي

بيروت (متحف سرسق) :

مجموعة من تماثيل وصور ورسوم واشياء طقسية ومنزلية ولعب وزخارف رافقت حياة المكسيكيين منذ آلاف السنين حتى اليوم . وقد امتزج في الفن المكسيكي التراث الهندي والاوروبي . الا ان هذا لا يعني ان الشخصية المكسيكية ضائعة بين هذين التراثين، بل ان الشخصية الحضارية المكسكية اخذت ابعادها كاملة وتبلورت في ثلاث مراحل : المرحلة الزراعية (البحيرية) والمرحلة الدينية ، والمرحلة البنائية .

وتعتبر حضارة «لافانتا» اول حضارة كبرى في المكسيك . وكان الفنانون ينحتون المذابح في صخر واحد يتجاوز وزنه الثلاثين طناً ، وينحتون رؤوساً على غاية من الضخامة ويبرزون فيها قسمات جبارة .

وهذا الفن في حضارة لافانتا دل على نضج كبير فقد تنوعت اساليبه اذ عالج الفنان المكسيكي الموضوع الواحد على



تمثال معماري من آثار حضارة توتوناك المكسيكية

طرق مختلفة. وقد ترك فنانو هذه الحضارة رسوما غريبة الشكل لمسوخ أو اقزام نقشت بوضوح تام .

ومن اهم مميزات الفن فيها القوة مع التبسيط والحركة والتأكيد على البعد النفسي باشكال واقعية ، ولكنها واقعية محرفة ، ويمكن القول ان الاسلوب انتقل من الواقعية الى التعبيرية ، الى التجريدية.

وحضارة لافانتا هي جزء هام من حضارة خليج المكسيك الذي يقسم الى ثلاث مناطق : « منطقة لافانتا ، ومنطقة الهوا كستك ، ومنطقة التوتوناك » .

والطابع الفني السائــد في فن الهوا كستيكي هو الرغبة الى الاكتفاء بالبعدين في عمليات النقش .

اما في منطقة التوتوناك فقـد ظهرت حركة معمارية ضخمة استعملت فيها التماثيل المصنوعة من مكعبات حجرية مدموكة ، واروع مبتكراتهم في النحت تمثال: (شاك مول) وقد افرغ في شكل بتفق وهندسة المكان بحيث يتماشى والفكرة الدينية التي اوحت به ، وعلى التمثال تعبير عن انفعال شديد .

من كل ذلك يمكن ملاحظة أثر الحياة والمعتقدات الدينية في الفن المكسيكي القديم وقد اهتم الفنانون بالرموز كالثعبان الملفوف، والاقزام ، والتوائم وادوات الزينة .

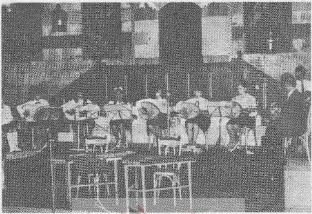
والنحت عندهم تعبيري بشكل بدائي الى حد بعيد ، وهنا نذكر الفارق الكبير بين التكتل المضغوط في الفن المكسيكي وبين الرشاقة والاستطالة في الفن الافريقي القديم ، رغم التقارب الكبير في الاحساس البدائي المشترك . كما ان التأثير الديني على الفن المكسيكي اكسبه شيئاً من الصلابة والعنف .

لذلك يلاحظ الازدواج في التركيب بين جزئيات الاشكال نفسها ، والقسوة في الملامح ، والوضوح في الخطوط النحتية لدرجة هندسية .

● بمناسبة الذكرى الخامسة لوفاة الشاعر العربي المجيد بدر الدين الحامد اقامت وزارة الثقافة مهرجاناً في صالة سينما الحمراء، تليت فيه بعد القرآن الكريم برقية وزير الثقافة والقيت كلمات محافظ حماه والاديبين احمد الجندي ومحمود الزعيم وقصائد الشعراء عبد الرحيم الحصني ومحيي الدين الدرويش واحمد علي حسن ونجيب رويحة وسعيد قندقجي ومحمد الحريري وقدم الاديب عبد الغني الحامد مختارات من شعر الفقيد، الذي تذكره الأجيال شاعراً رائداً، وسيداً من سادة المنابر الوطنية، والجهاد. وتنشر المعرفة جانباً من حياة الفقيد، وشعره في عدد قادم.

● ألقى الباحث الفرنسي إيف لاكوست الاستاذ في معهد التنمية الاقتصادية والاجتماعية بباريس محاضرة عن مفهوم التخلف وذلك في المركز الثقافي العربي بدمشق، ضمن الموسم الثقافي ١٩٦٥ – ١٩٦٦ الذي أعدته وزارة الثقافة.

● بمناسبة انتهاء السنة الدراسية قدم طلاب المعهد العربي للموسيقى بدمشق حفلة في العزف على الآلات الشرقية وقصر العظم، وحفلة في العزف على الفيولونسل في المركز الثقافي العربي. وحفلة في العزف على الكمان في المركز الثقافي السوفييتي.



حفلة المعهد العربي الموسيقى في قصر العظم

● افتتحت وزارة الثقافة في المركز الثقافي بدمشق معرض لوحات الفنان البلجيكي جان بيير دومون ، كما عرضت في المركز ٦ أفلام بلغارية .

● أقامت مدرسة العرفان الايطالية بدمشق معرض التربية الفنية لانتاج طالباتها خلال العام الدراسي ١٩٦٥ - ١٩٦٦ .

•



مجموعات « المعرفة » المجلدة

يسر ادارة مجلة « المعرفة » أن تعلم قراءها واصدقاءها عن وجود كميات محدودة من مجموعات مجلة « المعرفة » منذ صدورها مجلدة – كل أربعة اعداد في مجلد واحد – وادارة المعرفة مستعدة لارسالها لطالبها بثمن ٢٠ ليرة سورية لمجموعة السنة الواحدة المؤلفة من ثلاثة مجلدات يضاف اليه اجرة البريد للخارج ، حسب رغبة صاحب الطلب .

يرجى أن يكتب الى محاسبة مجلة « المعرفة » وزارة الثقافة والارشاد القومي – دمشق – مع ارفاق الطلب بالثمن المذكور . والمحاسبة مستعدة لتقديم المعلومات اللازمة بشان التحويل من الخـــارج والارسال بالبريد العادي أو الجوي وفق الطلب . .

عدد خاص من مجلة (المعرفة)

ثلاثون كاتباً و ٥٠٠ صفحة

القضية العربيـة

في صراعها مع الصهيونية العالمية

مجموعة بحوث ودراسات وترجمات اشترك في تقديمها لعدد (المعرفة) الخاص نخبة من الكتاب والباحثين العرب والأجانب محاولة أولى تقوم بها (المعرفة) في سبيل هذا الواجب الثقافي القومي

يطلب هذا العدد الخاص من (المعرفة) من جميع مكتبات الوطن العربي ومن محاسبة ادارة المعرفة ــ وزارة الثقافة والارشاد القومي

ثمن النسخة ٢٠٠ قرشاً سورياً

قررت لجنة الادارة والتحرير هذا السعر المخفض للعدد الممتاز تيسيراً للثقافة العربية

الاعلان في (المعرفة)

اعتمدت لجنة الادارة والتحرير اعتباراً من مطلع عام ١٩٦٦ تعرفة نشر الاعلانات في المجلة على النحو التالي الذي قرره مجلس ادارة المؤسسة العربية للاعلان :

	لمرة واحدة
صفحة كاملة من الصفحات الاولى او الاخيرة	٢٠٠ ل.س
نصف صفحة من الصفحات الاولى او الاخيرة	١٢٥ ل.س
صفحة كاملة من الصفحات الداخلية	١٥٠ ل.س
نصف صفحة من الصفحات الداخلية	٧٥ ل.س
الغلاف الخارجي (ابيض واسود)	٣٢٠ ل.س
الغلاف الخارجي بلونين	٤٠٠ ل.س
باطن الغلاف (ابيض واسود)	٢٥٠ ل.س

توزع مجلة (المعرفة) على نطاق عربي واسع يشمل جميع البلاد العربية في المشرق والمغرب .